www.ibtesama.com/vb

الثقافة السيكولوجية

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

الزواج والاستقرار النفسي

الدكتور زكريا ابراهيم

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

www.ibtesama.com/vb

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر مايو 2015 **

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

الزواج والاستقرار النفسي

www.ibtesama.com/vb

الطبعة الثانية ، ١٩٧٨
مكتبة مصر بالفجالة

www.ibtesama.com/vb

الثقافة السيكولوجية

يشرف على اصدارها الدكتور عبد المنعم المليجى

الزواج والاستقرار النفسى

تأليف

الدكتور زكريا ابراهيم

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

www.ibtesama.com/vb

	صفحة
تصـــدير	**٥**
مقـــدمة	**١١**
الفصل الأول : الاختيار الجنسى	١٨
الفصل الثانى : التكيف الزوجى	٤٧
الفصل الثالث : الزواج السعيد	٧١
الفصل الرابع : المجتمع « العائلى »	٩٩
الفصل الخامس : الأسرة المتكاملة	١٣٥
الفصل السادس : مشكلة الطلاق	١٧٠
الفصل السابع : توجيهات عملية	١٩٨
خاتمـــة	٢١٨
المراجع العربية	٢٢٨
المراجع الأجنبية	٢٢٩

www.ibtesama.com/vb

تمهيد

في هذه المجموعة التى آلت على نفسها تبسيط الحقائق العلمية ، وربط النظر بالعمل ، يسرنا أن نقدم الى قراء العروبة كتابنا عن « سيكولوجية الحياة الزوجية » الذى نعده مجرد محاولة لالقاء بعض الاضواء العلمية على جانب من مشكلات الزواج والاسرة (١) · ولسنا نزعم أننا قد أحطنا فى مثل هذا الكتيب الصغير بأهم ما يشغل بال الراغبين في الزواج ، أو أننا قد استطعنا أن نلم فى تضاعيف هذا البحث بكل ما يعرض للحياة الزوجية من متاعب ومصاعب ، وانما نحن نظن أن القارىء قد يجد فى ثنايا هذه الدراسة المقتضبة بعض الحقائق النفسية والاجتماعية التى لابد من معرفتها فى مستهل الحياة الزوجية · واذا كان من الحق أن هذه الثقافة السيكولوجية ليست شرطا ضروريا لكل سعادة زوجية، فان من الحق أيضا أنها قد تعين الفرد فى مجتمعنا الحديث على تحقيق بعض أسباب « التكامل النفسى » الذى افتقده الانسان فى مدنية القرن العشرين ·

---

(١) ارجع أيضا الى كتابنا « سيكولوجية المرأة » ، مكتبة مصر، لسنة ١٩٥٧ · فان هذا الكتاب هو جزء متمم لسابقه ·

www.ibtesama.com/vb

وحينما تعلو صيحات بعض خصوم علم النفس معلنة أن أجدادنا كانوا سعداء فى حياتهم الزوجية ، على الرغم من جهلهم باللاشعور والتحليل النفسى والعقد النفسية والعيادات السيكولوجية ، فربما كان فى استطاعتنا أن نرد على هذا الاعتراض بقولنا ان تعقد أسباب المدنية الحديثة هو الذى أوجد الحاجة الى علم النفس ، وهو الذى خلق ضرورة العلاج النفسى • فما كان أجدادنا يفعلونه بالسليقة أو بالادراك المباشر أو بالعقل السليم ، أصبحنا اليوم فى حاجة الى أن نتعلمه أو أن نتدرب عليه أو أن نعمل على اكتسابه • ولئن كان علم النفس هو علم الحياة البشرية ، فاننا مع ذلك ينبغى أن نعترف بأن « الحياة » أوسع رحابا من « العلم » •

والحق أن أسلوب حياتنا فى المجتمع الحديث هو الذى عمل على ظهور « الانحلال العائلى » على أوسع نطاق ، وهو الذى تسبب فى تزايد حالات « الصراع الزوجى » بما لم يسبق له نظير • واذا كان بعض المصلحين الاخلاقيين قد دأب على الحديث عن « محنة الزواج » و « أزمات الحياة العائلية » ، فربما كان السر فى كل تلك المشكلات الخطيرة التى يجتازها نظام الاسرة انما هو انفصام الرابطة السحرية

www.ibtesama.com/vb

التى كانت تجمع الانسان بالحياة ، وانعدام العلاقة الكونية التى كانت تربط الوجود البشرى بالحقيقة الشاملة · والظاهر أن الانسان الحديث قد أصبح يتعثر فى اختياره لشريكه الآخر ، وكأنما هو قد فقد ذلك « الحس الباطن » الذى كان يهديه فى لمعة من لوامع الحدس الى « الشريك الملائم » أو «النصف المكمل» ـ على حد تعبير أفلاطون ـ · ولسنا نزعم أن مشكلات الصراع والتكيف والخلاف والطلاق انما هى مشكلات حديثة العهد (فان أحدا لا يستطيع أن ينكر أن المجتمعات القديمة قد عرفت معظم هذه المشكلات) ، وانما نحن نعتقد أن ما يميز حضارتنا الحديثة هو تعرض القيم الاخلاقية للانهيار، واستهتار الكثيرين بقدسية النظام العائلى · وآية ذلك أننا لو عمدنا الى تحليل الكثير من حالات « الصراع الزوجى » ، لوجدنا أن تمرد الطرف الواحد على شريكه فى الحياة الزوجية انما هو فى صميمه تمرد على « الزواج » نفسه ! فلا بد لنا اذن من أن نقف على أسباب هذا التمرد ، ولابد لنا أيضا من أن نلم بمستقبل الزواج فى المجتمع الحديث باعتباره « نظاما اجتماعيا » · وليس من شك عندنا فى أن دراسة الدور « النفسى » الذى تقوم به الاسرة فى

www.ibtesama.com/vb

حياة الافراد ، انما هى السبيل الوحيـــد لفهم الدور « الاجتماعى » الذى ينهض بـه النظام العائـلى فى حياة المجتمعات • ومن هنـــا فاننا قـد حرصنا فى هـــذا الكتاب على أن نفهم الفرد باعتباره عضوا فى مجتمع ، مـــع النظر الى المجتمع فى الوقت نفســـه باعتباره مجعولا للافراد •

* * *

أما الطريقة التى سرنا عليها فى كتابة هـــذا البحث ، فهى طريقة وضـــع المشـكلات واستعراض الحلول المختلفة ، واستبعاد ما ضعف احتماله من هذه الحلول ، مع تجنب القطع والتأكيـــد أو الادلاء بآراء نهائية حاسمة • وقـــد افترضنا أن لـــدى القارىء قـدرا غير ضئيل من المعلومات السيكولوجية ، ولكننا مع ذلك لم نتردد فى توضيح ما قـد يشكل فهمه على القارىء العادى من مصطلحات فنية • وقد كان رائدنا فى هـذا البحث تبســيط الحقائق العلميـة وتجنب الخلافات المدرسية ، مع الاهتمام فى الوقت نفســـه بتقديم قدر غير قليل من الحقائق النفسية التى يمكن أن يستفيد منهـــا المتخصص وغير المتخصص (١) •

---

(١) سيجد القارىء المتخصص فى ختام هذه الدراسة ثبتـــا

www.ibtesama.com/vb

ولكننا لم نستطع بطبيعة الحال أن نقوم بتطبيق تلك الحقائق على المجتمع المصرى (وهو ما كنـــا نود أن نضطلع به لو تهيأت لنـــا مواد البحث) ، فبقى الجانب الاجتماعى من بحثنا فى حاجـــة الى مزيد دراســـة ، ولو أننـــا نأمـــل أن نتمكن فى مســـتقبل قريب ان شـــاء اللـــه من استكمال هذا البحث ، بعد الاطلاع على الاحصائيات اللازمة والوثائق الاجتماعية المختلفة ٠

وقد حرصنا فى ختام هذه الدراسة على أن نقـــدم بعض التوجيهات العملية التى تكشف للقـــارىء عن ارتباط النظر بالعمل ، وتعينه على الاستفادة عمليـــا من الحقائق العلمية التى وردت فى تضاعيف هـــذه الدراسة ٠ ولم يكن غرضنا من هـــذه التوجيهات أن نضع بين يدى القارىء بعض النصائح الأخلاقية ، وانما كان غرضنا أن نلحق بدراستنا النظرية بابا فى علـــم النفس التطبيقى ٠ ولاشك أن علم النفس قـــد أصبح اليوم يلعب دورا كبيرا فى صميم حياتنا اليومية ، فليس من حرج علينا فى أن نهيب به فى مضمار الارشاد العائـــلى ٠

= باسماء أهم الكتب الأجنبية والعربية التى تناولت بالبحث سيكولوجية الزواج ومشكلات التكيف الزوجى ومسائل الأسرة ٠٠٠ الخ ٠ وقد توخينا فى اختيار هذه المراجع أن نضع بين يدى القارىء أهم الكتب النفسية والاجتماعية التى ظهرت حديثا فى الزواج والأسرة ٠

www.ibtesama.com/vb

ولسنا نرجو فى الختام سوى أن نكون قد أصبنا حظا من التوفيق فى تحقيق الغاية المنشودة من هذا الكتاب ، ألا وهى العمل على نشر الثقافة السيكولوجية، والاستفادة من علم النفس فى دعم أواصر الاسرة ، وتوطيد أركان المجتمع العائلى ، وتحقيق أسباب «التوافق الزوجى » بين نصفى المجتمع .

زكريا ابراهيم
دكتوراه الدولة فى الآداب من السوربون

الخرطوم فى ٤ يناير سنة ١٩٥٧

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

مقدمة

حينما كان علماء النفس يأخذون بنظرية الغرائز، فقد كانوا يرون أن أهم الغرائز البشرية هى غريزة القطيع ، وغريزة البحث عن الطعام ، وغريزة الجنس. ولكن على الرغم من أننا اليوم لم نعد نأخذ بنظرية الغرائز ، فاننا قد لا نجد حرجا فى أن نقول مع أدلر ان مسائل الحياة الكبرى تنحصر فى مشكلات ثلاث : مشكلة الحياة الاجتماعية ، ومشكلة كسب العيش ، ومشكلة الحب . فالفرد العادى لا بد من أن يحيا فى مجتمع ، وهو مضطر الى أن يبحث عن عمل يقتات به ، ثم هو فى حاجة الى أن يكون علاقة ما مع الجنس الآخر . وكل مشكلة من هذه المشكلات الثلاث وثيقة الصلة بالمشكلتين الاخريين ، بحيث ان حل الواحدة منها قد يعين الفرد على ايجاد حل لكل من المشكلتين الاخريين . والواقع أنها جميعا بمثابة مظاهر مختلفة لموقف بشرى واحد ، ألا وهو ضرورة المحافظة على البقاء ، والعمل على استمرار الحياة الانسانية فى البيئة المعينة التى يحيا فيها الفرد. وما يحدد فهم كل فرد منا لمعنى الحياة ، واحساسه العميق بقيمة الوجود ، انما هو نوع استجابته لتلك

www.ibtesama.com/vb

المشكلات الثلاث · ومعنى هذا أن لكل منا أسلوبا معينا فى المعيشة هو وليد احتكاكه بالمجتمع ، وتعامله مع الآخرين ، وتكيفه مع العالم الخارجى ، وهذا الاسلوب المعين ليس مجرد صدى لعوامل وراثية ، وانما هو وليد البيئة ، وثمرة لتلك التربية التى تلقاها المرء فى السنوات الخمس الاولى من حياته · واذن فان موقف الفرد من مشكلات الحب والزواج هو كما سنرى فى تضاعيف هذا الكتيب وليد «أسلوب» معين أو « طراز » خاص فى المعيشة نشأ عليه المرء منذ نعومة أظفاره ، حتى أن البعض ليذهب الى أن الازواج الاشقياء هم فى معظم الاحيان أبناء أشقياء لم ينعموا فى طفولتهم بأية محبة أو عطف أو حنان· هذا الى أن الاطفال الذين لم ينشأوا فى كنف أسرة سوية تكفل لهم أسباب الرعاية والعناية كثيرا ما يصبحون بدورهم فيما بعد آباء منحرفين لايستطيعون أن يكفلوا لابنائهم حياة سعيدة مفعمة بالعطف والحدب والرعاية · وسنحاول فى دراستنا لمشكلات الزواج والاسرة ان نكشف عن الدور الهام الذى تقوم به « حياة الطفولة » فى تحديد مدى سعادة الزوجين أو شقائهما ، ومدى تكامل الاسرة أو تفككها·

وليس يكفى لفهم الزواج أن نقول مع شوبنهور انه

www.ibtesama.com/vb

مجرد حيلـــة من حيـــل الطبيعة ، تريد من ورائهـا « الارادة العمياء » أن تعمل على استمرار مهزلة الحياة، أو أن نقول مع بعض السذج انه مجرد ظاهرة بيولوجية تتحقق عن طريقها عملية التكاثر ، وانمـــا يجب أن نلاحظ منذ البداية أن وظيفة الحافز الجنسى عنـدنا ليست هى التكاثر أو التناسل ، بدليل أن النشـــاط الجنسى لدى الانسان ليس موسميا أو دوريا ، وانمـا هـو نشاط مستمر غير منقطع • حقـا أن «الجنس» Sex هو مجرد حافز فطرى أو نزوع غـــريزى ، ولـــكن مشكلة الحب عنـــدنا لا تنحصر فى معرفـة الســـبيل الى ارضاء هـذا الحافز أو اشـــباع تلك الغريزة • والواقع اننـــا لو ألقينا نظرة على مختلف حوافزنا وميولنا الفطرية ، لوجدنا أنهـا قـد خضعت لألوان شتى من التطور والترقى والتهذيب • ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن ما يميز الانسان عن الحيوان انما هو ما لديه من قدرة على التسامى بغرائزه والعمـل على اعلاء حوافزه ، فان الانسان هـــو الذى خلق من ضرورة تناول الطعام « فن الطهى » وهو الذى أوجد من الحاجة الى اللباس « فنون الازياء » ، وهو أيضـــــا الذى أبدع من الغريزة الجنســـــية « فن الحب » ! وهـكذا تدخلت عوامل الحضارة فى حـوافز الجنس فعملت على تهذيبها وترقيتها ، وخلقت من تلك الغريزة

www.ibtesama.com/vb

الحيوانية شيئا انسانيا نسميه الزواج · وحينما نقصر نظرنا على الجانب البيولوجى أو الوظيفى من هـــذه الظاهرة ، فاننـــا لن نفهم « الزواج » على حقيقتـه باعتباره ظاهرة نفسية ذات صبغة اجتماعية واضحة ، كما أننا لن ندرك معنى « الحب » باعتباره ظاهـــرة انسانية تعدو حدود الجنس ·

وان البعض ليظن أن معنى « الحب » انما ينكشف للمراهق أول ما ينكشف حينما تنضج لـديه الحوافز الجنسية ، ولـكن الحقيقة أن علاقة الطفل بوالديه منذ الطفولة المبكرة هى التى تســـمح له بأن يفهم معنى « الحب » · وهـــذه العلاقة هى التى ستحدد فيما بعـد معظم أرجاعه نحو الجنس الآخر ، وأغلب مظـــاهر سلوكه فى التعامل مع زوجه (أو زوجته) · وهـكذا يجد الطفل فى كنف والديه موئلا يقيه عوادى العالم الخارجى ، فيفهم من الحب أنه السبيل الى حيـــاة آمنة مطمئنة ، ولكنـه لا يلبث أن يشعر بأن فى الحب أيضا تحررا من الفردية وتضحية بالانانية · ومن خـــلال عملية « نضج الشخصية » ، يكتسب الحب دلالتـــه العميقة باعتباره مظهرا للتحرر من « النرجســـية » (Narcissism) ، فلا يكتفى الشخص البالغ بالاستناد الى محبوبه والاعتماد عليه ، بـل يحاول أيضـــا أن

www.ibtesama.com/vb

يظلله بعطفه ويحيطه بعنايته · ولما كان من مظاهر نضج الشخصية أن يصبح الفرد قادرا على الاخذ والعطاء ، فان القاعدة الاولى فى كل حياة زوجية هى أن يهتم كل من الزوجين بشريكه الآخر أكثر من اهتمامه بنفسه · وهذا ما نعنيه فى العادة حينما نقول ان النشاط الجنسى مهمة يضطلع بها اثنان ، فهى تستلزم من التعاون ما لا طاقة به للشخص المنحرف الذى لا يتخذ من الحافز الجنسى الا سبيلا لاشباع شهوته الخاصة · وسنرى من خلال هذا البحث أن أكثر الأشخاص عرضة للفشل فى حياته الزوجية انما هو الرجل العصابى "Neurotic" (١) ، نظرا لأنه لا يدرك معنى التعاون ، ولا يعرف كيف يقيم حياته الزوجية على أساس من المشاركة · وكثيرا ما يصبح الطفل المدلل زوجا فاشلا ، لأنه نشأ على ارضاء كل رغباته على حساب الآخرين ، فلم يتعلم أساليب التعامل مع الغير ، ولم يعرف كيف يحقق التكيف مع المجتمع ·

وليس أدل على أهمية « الحب » فى حياة المجتمعات من كل تلك الثروة الادبية التى خلفها لنا الشعراء

---

(١) العصابى أى الذى يعانى من متاعب أو اضطرابات نفسية عميقة ·

www.ibtesama.com/vb

والروائيون ، والتى تغنوا فيها بأقاصيص المحبين والعاشقين ! ولم يكن الحب فى حياة البشرية مجرد « ظاهرة طبيعية » أو « خلق تلقائى » ، وانما كان نتاجا انسانيا عملت على ابتكاره الروح البشرية التى نجحت فى صقل الغريزة الجنسية • وهكذا لعب « الجنس » دورا كبيرا فى حياة المجتمعات ، فكان الرجل يقوم بأعمال البطولة حتى يكسب يد المرأة التى أخذ حبها بمجامع قلبه ، وكانت المرأة تجتهد فى أن تبدو للرجل بمظهر « الاميرة الحالمة » ، أو « المعشوقة الساحرة » ، حتى تجتذبه بجمالها ، وتأسره بفتنتها • وعلى الرغم من أن حضارتنا اليوم لم تعد حضارة أرستقراطية تسودها أفكار الفروسية والبطولة والحب الرومانتيكى ، فانه لا زال على كل من الرجل والمرأة أن يضطلع بدور غرامى معين ، حتى ينجح فى حل مشكلة الحب حلا مرضيا • حقا ان الرجل لم يعد فى حاجة الى أن يكون فارسا مغوارا أو بطلا شجاعا ، ولكنه لا زال فى حاجة الى أن يبدى الكثير من أمارات الشجاعة ودلائل قوة الشخصية حتى يظفر بتقدير المرأة واحترامها • كذلك لم تعد المرأة فى حاجة الى أن تكون « أميرة » حالمة أو معشوقة ساحرة ، ولكنها لا زالت فى حاجة الى أن تعنى

www.ibtesama.com/vb

برشاقتها ومظهرها وحسن هندامها حتى تحظى باعجاب الرجـــل ورضائه • ومن هنـا فان الرجل لا ينتظر من المرأة أن تعنى براحته وتوفير أسباب الرفاهية له ، لمجرد أنه يبغى الراحـــة فى ذاتها ، بـل لانه يرى أن فى عنايتها به دليـــلا على أهميته ، وجزاء له على اعجابه بهـا ! وهـكذا نرى أن الحياة الزوجية تقتضى أن يقوم كل من الزوجين بأداء «دوره» فى هـــــذه العلاقة الغرامية المزدوجة ، وفقـــا لاسلوب الحيـــاة الذى اختاره لنفسه •

* * *

•• بيد ان مشكلات الحب والزواج والأسرة هى أعسر من أن نلم بها فى مثل هذه المجالة الوجيزة ، فحسبنا فى هـذا الكتاب أن نطوف ببعض مراحـــل الحياة الزوجية ، مهتمين على الخصوص بمشـــكلات التكيف ومظاهر الصراع الزوجى وأسباب انحـــلال الاسرة • وسيكون رائدنا فى هـــذا البحث أن نربط الجانب السيكولوجى من الظـــاهرة العائلية بالجانب الاجتماعى ، مع الاهتمام فى الوقت نفسه بالعودة بين الحين والآخر الى تاريخ المجتمعات البشرية من أجـــل الوقوف على التطور الذى لحق تلك الظاهرة • وعسى أن نكون قد أصبنا بعضا من التوفيق فى هذا السبيل •

www.ibtesama.com/vb

الفصل الأول

الاختيـــار الجنسى

١ ـ حينما نتحدث عن « الاختيار الجنسى » Sexual Selection فاننا نعنى تلك العملية السيكولوجية التى يقوم بهـــا الفرد حينما يحدد « موضوع حبه » ، مســـــتندا فى ذلك الى بعض العوامل النفســـــية والاجتماعية · ولا نرانا فى حاجـــة الى القول بأنه ليس ثمة اختيار مطلق الحرية فى هـذا المجال : فانه لمن الواضح أن الرجل يختار فى العـادة شريكة حياته من الوسط الذى يعيش فيه ، مراعيا فى اختياره بعض الشروط المتعلقة بالسن والمركز الاجتماعى والحـالة الاقتصادية والبيئة الثقافية ··· الخ · حقـــا ان المدنية الحديثة قد وسعت من آفاق الرجل ، فأصبح فى وســـعه أن يتصل ببيئات جديدة ، وأن يـــكون صداقات عديدة ، كما أصبح فى وســـعه أيضـــا أن يضرب صفحا عن بعض « الاعتبارات » الاجتماعية التى كان يتقيد بهـــا أسلافه ، ولـكن اختيار الزوجـــة (أو الزوج) لا زال محددا ببعض الشروط الاجتماعية

www.ibtesama.com/vb

التى يلزم بهـــا المجتمع أفراده • وقـــد كان الرجل فى بادىء الامر يختطف شريكة حياته المقبلـة ، فكان الزواج يقوم على « القـــوة » ، ثـــم تطور النظـام الاجتماعى فأصبح الرجل يشترى زوجته ، ومن ثـم فقـــد كان على الرجل أن يدفع لاهـل الزوجة مبلغا من المـــال فى نظير السماح له بالحصول على الفتـاة التى يريدها ، أو كان عليـه أن يشتغل عـــددا من السنوات فى حقول أهـــل الزوجة حتى تصير المرأة ملكا له ، كما فعل يعقوب قديما فى سبيل الظفر بيـد راحيل • ولم يلبث المجتمع أن اشترط للزواج موافقة الاهل أو المسئولين ، فأصبح رأى الاسرة هو أســاس العقد ، ولم يـكن للفتاة أن تبدى رأيها أو أن تعرب عن قبولها أو رفضها ، وانما كان عليهـــا أن تذعن لأمر رب الأسرة الـــذى لم يكن يراعى فى قبوله أو رفضه ســـوى مصلحة الاسرة وسمعتها وشرفهـــا الاجتماعى • وأخيرا أصبح الزواج قائما على الموافقة الشخصية التى تبديها الفتـاة ، فلم يعـد فى استطاعة أحـد ـ فى معظم المجتمعات الحديثة ـ أن يفرض على المرأة قبول زوج لا ترتضيه هى لنفسها ، ولم يعـــد فى وسع الآباء أن يتدخلوا تدخلا مباشرا فى تحديد مصير بناتهم •

www.ibtesama.com/vb

ومهما يكن من شيء ، فان من المؤكد أن التقاليد الاجتماعية لا زالت تلعب دورا كبيرا فى تحديد أسلوب كل مجتمع من المجتمعات ، بل كل بيئة من البيئات ، فى عملية « الاختيار الجنسى » · ويظهر تأثير المجتمع على وجه الخصوص فى تحديد سن الزواج ، فان بعض المجتمعات لا زالت ترحب بالزواج المبكر ، بينما نجد أن بعض المجتمعات الحديثة قد أخذت تنفر من الزواج المبكر ، محبذة الزواج المتأخر الذى يقترن فى العادة باكتمال النضج فى الشخصية · وحسبنا أن نذكر أن حالات الزواج التى تمت فى مصر لبنات فى سن العشرين قد بلغت حوالى ٤٥٪ عام ١٩٤٧ ، بينما نجد أن هذه الحالات لم تتجاوز فى انجلترا ٨٪ · ولكننا نلاحظ أنه بينما كان متوسط سن الزواج بصفة عامة فى انجلترا قبل الحرب الاخيرة هو ٢٩ سنة للرجال و ٢٦½ للنساء ، فان هذا المتوسط قد انخفض على أعقاب الحرب فصار ٢٣ سنة للرجال و ٢٠ سنة للنساء · ولاشك أن هذا الانخفاض العارض فى سن الزواج انما يرجع الى الآثار المباشرة المترتبة على استقرار الاحوال الاجتماعية بعد انتهاء الحرب ، ولو أن هذا الانخفاض لم يستمر لمدة طويلة ، بسبب اختفاء

www.ibtesama.com/vb

الآثار المترتبة على الحرب • ولكننا لو نظرنا الى مشكلة السن الملائمة للزواج من الناحيـــة السيكولوجية ، لوجدنا أن الاســـتعداد النفسى للزواج لا يمكن أن يتوافر بصفة عامة لـــدى رجال تقل سنهم عن ٢٨ سنة ، أو لدى نســـاء تقل سنهن عن ٢٥ ســـنة • والواقع أن الشاب (أو الفتاة) قبل هـــذه السن قلما يدرك (أو تدرك) المعنى الحقيقى للزواج باعتبـاره صلة دائمة ، ورابطة قوية ، واتحادا عميقا • ولهـــذا فان من الواجب فى رأينـــا ألا نشجع الزواج المبكر ، لأنه فى العادة زواج يحمل فى طياته بوادر الفشـــل وأسباب الخيبة (١) •

وقد يعترض البعض على هـذا الرأى بحجـة أن النضج الجنسى يتم فى سن مبكرة ، وأنه من الاجرام فى حق الشـــاب أن نلزمه بمقاومة الحافز الجنسى كل هـذا الامد الطويل ، ولكننا نعتقد أن فى هـــذا الاعتراض اغفـــالا لحقيقة سيكولوجية هـــامة هى « النضج النفسى » الذى لابـد منه لكل شخص يقـدم على الزواج • فنحن لا نحبـــذ الزواج المبـكر لمجرد

---

(١) هذا هو الرأى الذى ذهب اليه قديما أرسطو حينما دعـــا الى تحريم الزواج على الأحداث الذين لم يبلغوا بعد سن النضج •

www.ibtesama.com/vb

اعتبارات اقتصادية ، أو لمجرد أن مدنيتنا الحاضرة لم تعد تسمح للشـــاب بأن يتزوج فى سن مبكرة ، بـل لاننا نلاحظ بوضوح أن المدنية الحديثة قـد أثرت تأثيرا كبيرا على مستوانا السيكولوجى ، فأصـــبحنا لانبلغ مرحلة « النضج الـــذهنى » الا فى سن متأخرة نسبيا عن مرحلة « النضج العضوى » • وحينما يتزوج الشاب (أوَ الفتاة) فى سن مبكرة ، أى قبل اكتمال نضج الشخصية عند الواحد منهما ، فانه قـد يحدث أن تنفصم عرى المحبة بينهما حينما تنضج شخصـــية الواحد منهما ، فتتكشف له نقائص الآخر ، وهـــو مـا عبرت عنه احـدى السيدات يوما بقولها : « ان زوجى لم يعـد ذلك الرجل الذى أحببته يوما ! » • هـذا الى أن الشاب الصغير قـد يخلط بين « الزواج » و « المغامرة الغرامية » فيظن أنه يكفى للزواج بفتاة أن تروقه جنسيا أو أن يأخذ سحرها بمجامع قلبـه ! ولـــكن الواقع أنه شـــتان بين « المغامرة الغرامية » و « الزواج » : لأن الاولى ظـــاهرة عابرة عارضـــة موقوتة ، بينما الزواج رابطـــة دائمـــة تقوم على الاستقرار والثبات • حقـــا ان « المغامرة الغرامية » قد تكون ميدانا صالحا للتدرب على الزواج والاستعداد لمواجهة بعض تبعاته الجنسية ، ولكنها ليست بالميدان

www.ibtesama.com/vb

الحقيقى الذى تكسب فيه معركة الزواج السعيد ! واذا كانت بعض القبائل البدائية تشترط للزواج أن يقدم الرجل لزوجته المقبلة رأس عدو نجح فى قتله ، فربما كان فى وسعنا أن نقول ان على الرجـــل الذى يرغب فى الزواج اليـــوم أن يقـــدم لخطيبته ـ مصـداقا لرجولته ـ رأســـه هو ، أعنى رأسا ناضجا ، وعقـلا واعيا ، وفهما صحيحا لمعنى الحيـــاة ومرمى الزواج وأسباب السعادة الزوجية (١) ٠

ولو أننـــا رجعنا الى الاحصائيات المختلفة لحالات الزواج فى البلاد المتعددة ، لوجدنا أن الرجال يميلون فى العادة الى التزوج بنساء أصغر منهن سنا ٠ ولـكن الفارق فى السن بين الرجل والمرأة يختلف من بلد الى آخر ، فنراه فى البلاد الاوروبية والامريكية لايـــكاد يتجاوز ٥ سنوات ، بينما نراه يبلغ فى بعض بـــلاد الشرق حوالى ١٠ أو ١٥ سنة ٠ وربما كان السبب فى ذلك هو أننا ندفع بالفتاة الى الزواج فى سن مبكرة ، قبل أن تستكمل نضجها النفسى ، بينما يجد الرجـــل نفسه مضطرا الى التأخر فى الزواج حتى يكون نفسه

---

(١) Y. Oswald Schwarz : "The Psychology of Sex" Penguin Books' 1953 P. 250

www.ibtesama.com/vb

ماديا ، ويصبح أهلا لتحمل تبعات الحياة الزوجية • ولكننا نلاحظ أنه على الرغم من أن حظ الزواج بالنسبة الى الفتيات يقل فى العادة بعد سن الخامسة والعشرين ، فان ظروف التعليم قد تشفع للفتاة المثقفة فتسمح لها بالزواج حتى سن الثلاثين • ومع ذلك فان الاحصائيات قد دلتنا على أن حظ الفتاة من الزواج ـ حتى فى البلاد الامريكية ـ يأخذ فى التناقص بعد سن الثانية والعشرين • ومعنى هذا أن عامل السن لا زال يلعب دورا أكثر خطورة فى حياة المرأة منه فى حياة الرجل •

٢ ـ أما اذا نظرنا الى العوامل السيكولوجية التى تتدخل فى عملية « الاختيار الجنسى » ، فاننا نجد أن ثمة رأيا يذهب أصحابه الى أن الرجل فى العادة يقترن بالمرأة التى تشبه أمه ، كما أن المرأة تقترن فى العادة بالرجل الذى يشبه أباها • ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن هذا الرأى يستند الى نظرية فرويد فى « عقدة أوديب » التى تقول بأن الولد يتعلق فى طفولته بأمه ، وأن البنت تتعلق فى صباها بأبيها• ولكن بعض الباحثين فى أمريكا قد حاول أن يثبت بالالتجاء الى مجموعة من الاستخبارات الدقيقة أن اختيار الفتاة لشريك حياتها متأثر بالصورة التى

www.ibtesama.com/vb

كونتها لنفسها عن « الرجل المثالى » أكثر مما هو متأثر بالصور التى علقت فى ذهنها عن والدها ومهما يكن من شىء ، فان من المؤكد أن هناك عوامل لاشعورية دفينة تلعب دورها فى صميم عملية الاختيار الجنسى • هذا الى أن علاقة الرجل بزوجته فى المستقبل ستتحدد على أساس علاقته ابان الطفولة بأمه ، كما أن علاقة المرأة بزوجها فى المستقبل ستتحدد على أساس علاقتها ابان الطفولة بأبيها • وآية ذلك أن الطفلة التى ترى أن أمها تحصل على كل ما تريده من زوجها بالالتجاء الى استعمال سلاحها النسوى من اغراء وفتنة ، قد تتخذ من هذا السلوك نموذجا لما ينبغى أن تكون عليه علاقتها فى المستقبل بالرجال • والطفل الذى تعلم كيف يرضى والدته بطريقة معينة، قد يحاول فيما بعد أن يرضى زوجته بهذه الطريقة عينها • والبنت التى دأبت منذ الطفولة المبكرة على اتخاذ موقف عدائى من والدها قد تتخير عند الزواج رجلا تستطيع أن تواصل ضده تلك الحملة العدائية • ويذهب أدلر الى حد أبعد من ذلك فيقول ان الزوج المخدوع قد يكون فى بعض الاحيان طفلا مهملا لم يلق من أمه سوى الصد أو عدم الاكتراث • واذن فان آثار الطفولة لابد من أن

www.ibtesama.com/vb

تتردد أصداؤها فى الحياة الجنسية للشخص البالغ ، وهى تظهر على الخصوص فى نوع الشريك الذى يتخيره المرء ، وطريقة التعامل التى يتخذها بازائه ، وأسلوب الحياة الذى يسير عليه فى كل حياته الزوجية

بيد أن ثمة عوامل أخرى شعورية تعمل عملها فى اختيار الرجل لشريكة حياته ، واختيار المرأة لشريك حياتها · والواقع أن لدى كل فرد منا « صورة مثالية » للمرأة كما ينبغى أن تكون ، وهو حينما يقدم على الزواج ، فانه يحاول قدر المستطاع أن يقترب من هذا المثل الأعلى الذى تصوره لنفسه · ولكن هذه « الصورة المثالية » قد تكتسب طابعا خياليا ، فيصبح الشاب « رومانتيكيا » لا يرى الاشياء على حقيقتها ، أو هى قد تموه عليه الحقيقة فلا يعود فى وسعه أن يتكيف مع « الواقع » الذى يعيش فيه · وليس أخطر على الحياة النفسية للشاب (أو الفتاة) من أن يعيش فى عالم سحرى من التهاويل البراقة والاحلام الخداعة ، فلا يكون فى وسعه من بعد أن يتكيف مع الحقيقة (التى لا تخلو أبدا من نقص وضعف وقصور) · ولهذا فان علماء النفس ينصحون كل شاب مقدم على الزواج بأن ينأى بنفسه عن الخيالات الجميلة التى هى فى العادة أشبه

www.ibtesama.com/vb

ما تكون بأحلام اليقظة فى مرحلة المراهقة · ولسنا نعنى بذلك أن يتنكر الشاب لمثله الأعلى عند « الاختيار » أو أن يصرف النظر عن « القيم » التى طالما فهم فى ضوئها معنى الحياة ، وانما نريد أن نقول ان الشخصية الناضجة لا تصدر فى اختيارها عن تصورات خيالية أو أوهام رومانتيكية ، بل تبحث عن « الشريك » الملائم الذى يمكن أن تبنى معه حياتها على أساس من التعاون الكامل والتفاهم الحقيقى · ومعنى هذا ان الرجل الناضج لا يبحث عن « المرأة المثالية » ، بل هو يبحث عن الشريكة المخلصة التى تستطيع أن تقدر جهوده ، وأن تحفزه الى مضاعفة نشاطه ، وأن تشجعه على المضى فى الطريق الذى اختطه لنفسه · وهكذا الحال أيضا بالنسبة الى المرأة ، فان الفتاة الناضجة لا تبحث عن « الرجل المثالى » ، بل هى تبحث عن الشريك الامين الذى يستطيع أن يقف الى جوارها لمواجهة صعاب الحياة ، والذى تستطيع أن تثق فيه وتركن اليه · والحق أن رابطة الحب ـ كما لاحظ أدلر ـ هى مزيج من « القوة » و « الحنان » : لأن كلا من الرجل والمرأة يريد أن يحيط الآخر بعنايته وأن يسبغ عليه عطفه وحنانه من جهة ، كما أنه يريد أن يركن اليه ويتلقى

www.ibtesama.com/vb

منه الحدب والرعاية من جهـــة أخرى • فالحب هـو ضرب من التوازن بين حاجة المرء الى تلقى الرعـــاية كأنما هو مجرد طفل ، وحاجته الى رعاية الآخرين كأنما هو أب مسئول • واذا كان الحنان الذى يسبغ على المرء دليلا على قيمته ، فان الرعاية التى يسـبغها على غيره هى دليل على قوته • وهكذا نرى أن المرأة تريد أن تركن الى زوجها وتعتمد عليه ، ولكنها فى الوقت نفســـه تحب أن تشرف على تدبير أموره والاهتمام بحاجاته • والرجل يحب أن تكون له زوجة يحميها ويغار عليها ، ولكنـه فى الوقت نفســـه على اســـتعداد لان يتلقى منها الرعاية والحنان (١) •

٣ ـ مما تقدم يتبين لنـا أن « الاختيار الجنسى » متأثر بعوامل خارجية وأخرى داخلية : فهو من ناحية محدد ببعض الظروف الخارجية مثـــل محل الاقامة ، والعنصر الـــذى ينتسب اليه الشخص ، والطبقـــة الاجتماعية التى ينتمى اليها وما الى ذلك ، ثم هو من ناحية أخرى متأثر ببعض العوامل الداخلية مثـــل الحاجة التى يشعر بها الشخص الى العثور على رفيق مثـالى ، والصورة التى يكونها لنفسه عن « شريـــكة

---

(١) Lewis Way : "Alfred Adler ; An Introduction to his Psychology", London, 1956, Penguin Book. 144 — 145.

www.ibtesama.com/vb

حياته » على نحو ما ينبغي أن تكون ٠٠ الخ ٠ وقد قام بعض الباحثين في أمريكا بعمل مجموعة من الاستفتاءات بقصد الوصول الى معرفة « المثل الأعلى » لكل من الشاب والفتاة في المدارس العليا ، فكانت نتيجة هذا الاختبار كالآتي : أجمعت ٤٤٣ فتاة أمريكية على أن أهم الصفات التي ينبغي توافرها في « الرفيق المثالي » هي بحسب ترتيبها في الاهمية : (١) العقل الناضج ٠ (٢) الميل الى النظافة والعناية بالمظهر ٠ (٣) الصحة الجيدة ٠ (٤) قوة الشخصية التي تسمح بالاعتماد عليه والثقة فيه ٠ (٥) الميل الى السرور والبهجة ٠ (٦) الطهارة الجنسية ٠ (٧) السمعة الطيبة التي تدل على تقدير الناس له ٠ (٨) أن يكون محبوبا من أهله وذويه ٠ (٩) أن يكون عاملا مجدا ٠ (١٠) أن يكون محدثا بارعا لبقا في حديثه ٠

أما الصفات التي تطلبها الشبان (وقد كان عددهم ٤٢٦ شابا) في « الرفيقة المثالية » فهي بحسب ترتيبها في الاهمية : (١) العقلية الناضجة ٠ (٢) الصحة الجيدة ٠ (٣) المظهر الحسن ٠ (٤) النظافة والعناية بالملبس ٠ (٥) المرح والميل الى البهجة ٠ (٦) الشخصية المكتملة التي يمكن الاعتماد عليها ٠ (٧) الطهارة

www.ibtesama.com/vb

الجنسية · (٨) الميل الى العمل والنشاط · (٩) الروح الدينية والتردد على الكنيسة · (١٠) أن تكون الفتاة محبوبة من أهلها وذويها (١) ·

ومن هذا الاستخبار يتبين لنا بوضوح أن « المثل الأعلى » فى الزواج لدى كل من الشـــاب الامريكى والفتاة الامريكية ، هـــو « العقلية الناضجة » التى استكملت نموها النفسى ، مع الاهتمام فى الوقت نفسه بالناحيتين الجسمية والاجتماعية ، مما يدل على أن فكرة « تكامل الشخصية » ماثلة بوضوح فى وعى كل من الشاب والشابة فى أمريكا ·

ولو أننا أجرينا مثـل هـذا الاستفتاء فى مصر (أو غيرها من البلاد العربية) ، لوجدنا أن الصفات التى يتطلبها كل من الفتى والفتاة فى « رفيقه المثالى » (أو « رفيقها المثالى ») لابد من أن تجىء مختلفة عن الصفات التى أتينا على ذكرها من قبل · ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن « الطهارة الجنسية » مثـلا تحتل عندنا مركزا لا نظير له فى بلاد أخرى ، كما أننا قد لا نعلق على الاهتمام بالمظهر كل تلك الاهميـــة التى

---

(١) Cf W. G. Mather : "Courtship Ideals of High School Youth" "Sociology and Social Research", Vol. Xix., Nov. — Dec. 1934 PP. 166 — 172.

www.ibtesama.com/vb

يعلقها عليه المجتمع الامريكى • وليس من شك فى أن هذا الاختلاف انما يرجع الى بعض العوامل الدينيـة والاجتماعية والثقافية ، مما قـد يعسر حصره على وجـه التحديد • ولكن الملاحظ بصفة عامة عندنا أننـا لا زلنا نغفل أهمية العوامـل الداخلية فى « الاختيار الجنسى » بدليل أن « تكامل الشخصية » قلما يكون هـو المحك فى اختيار الشاب لشريـكة حياته ، فضلا عن أننا قلما نهتم بالتفكير فى مسائل تعدد الاسرة ومركزها الاجتماعى ومستواها المـادى وما الى ذلك من اعتبارات • ونحن لا ننـكر صعوبة الالتجاء الى تطبيق مثـل هـذه المعايير النفسية عند « الاختيار » فى مجتمعات لا زالت تقاليدها تحول دون تعرف الشـاب على شريكة حياته على الوجه الاكمل ، ولكننـا نميل الى الاعتقاد بأن تحرر المرأة فى مجتمعنا الحديث لابد من أن يعقبه تصحيح شامل لمثـل هـذه الاوضاع الاجتماعية ، خصوصا وأن التقاليد القديمة لم تعـد كافيـة لحماية الاسرة من حظر التصـدع والانهيار • واذا كان الكثير من شبابنا المتعلم لا زال يلتجىء الى الزواج بالاجنبيات ، فربما كان السر فى ذلك براجع الى أن التعرف على شخصية المرأة الاجنبية ميسور قبل الزواج ، بينما نحن لا زلنا نحيط بناتنـا

www.ibtesama.com/vb

بسياج من الغموض والسرية لا سبيل الى اختراقه الا بعـــد فوات الأوان ! ولا شك أن هذه الاوضـــاع الاجتماعية لا محـــالة زائلة ، ولكنها قـد تسببت فى تحطيم الكثير من البيوت ، اذ كيف يتأتى « الوفاق » بين شخصين يجهل أحدهما الآخر ؟

ان البعض ليظن أن « الوفاق » ظاهرة طبيعية لابد من أن تتولد فى كل مجتمع عائلى سوى ، ولـكن هـذه « الظاهرة الطبيعية » فى حـــاجة الى عوامل ممهدة ، وهى قلما تتهيأ فى الزواج السريع الذى يتم على عجـل دون أن تسبقه فترة تعارف حقيقى • ولعل هـذا هـو السبب فى أن لمرحلة « الخطبة » أهمية كبرى فى حياة الزوجين ، نظرا لانها هى التى تسمح للاختيار الجنسى بأن يقوم على أساس من « الاختبار » • والواقع أن فترة الخطبة هى أقرب ما تكون الى نظام اجتماعى يقوم على « المحاولة والخطأ » ، فهى الوسيلة الوحيدة التى تسمح لكل من الفتى والفتاة بأن يتجاوز دائرة التصـــور الخيالى متجها نحـــو دائرة التجربة الواقعية • حقـــا ان الخطبة التى تدوم بضعة أيام هى عبث لا طائل تحته ، كما أن الخطبة التى تدوم عـــدة سنوات هى فى العادة ظاهرة شاذة تؤذن مقدما بفشل

www.ibtesama.com/vb

الزواج ، ولـــكن الخطبة التى تدوم سنة واحـــدة (مثـــلا) قـــد تسمح للخطيبين بأن يتحققا من حسن اختيارهما ، ومدى قوة (أوضعف) الرابطة الزوجية التى ستجمع بينهما • وقد اختلفت وجهـــات النظر الى « الخطبة » فرأى فيها البعض عقدا ملزما كعقـــد الزواج ، بينما رأى فيها البعض الآخر مجرد مرحلـــة « اختبار » ، حتى لقد دعـــا الى تعديد هـــذا النوع من التجارب قبل الاقدام نهائيا على الزواج • والرأى الـــذى نميل الى الاخذ به هو أن « الخطبة » مرحلة نفسية هامة ، وأداة دفاع قوية ضـــد كل ما يترتب على الزواج السريع من أخطار وشرور (١) •

واذا كان بعض علماء النفس ـ مثـــل أدلر ـ قـــد بالغ فى تقرير أهمية « البيئة » كعنصر أساسى يقـــوم عليه كل بنـــاء الشخصية ، فان من واجبنا أيضـــا ألا نغفـــل « الوراثـــة » باعتبـــارها عنصرا هاما قـــد يلعب دورا خطيرا فى صميم الحياة الزوجية • والواقع أنه اذا كان الرجل يجلب معه عنـــد الزواج

---

(١) cf. Emory. S. Bogardus : "Sociology." New York, Macmillan1945, PP. 70 — 71.

www.ibtesama.com/vb

نصف « الوراثة » التى سيفرضها على أبنائه من بعد ، فانه هـــو الذى يتخير بنفسه ذلك النصف الآخر الذى يتمم هـــذه الوراثة • ومن هنـــا فان على الرجل أن يتروى كثيرا قبل أن يقدم على اختيار ذلك « النصف الآخر » الذى سيشترك معه فى تحديد بنية النسل • ولسنا هنا بمعرض الحديث عن أهمية العامل اليوجينى Eugenic (أى العامـــل المتصل بتحسين النسل) فى حياة الاسرة ـ فذلك ما سنعود اليه فى موضع آخـــر من هذا المؤلف ـ ولكن حسبنا أن نقول ان الرجـــل حينما يختار شريكة حياته ، والمرأة حينما تختار شريك حياتها ، فانهما يشتركان معـــا فى اختيـــار الوراثة الكاملة (لا مجرد نصف الوراثة) التى سيفرضانها من بعد على أبنائهما • وليس من شك فى أن ضيق أفق الشـــاب ، أو فرط خجله ، أو رغبته اللاشعورية فى اجتناب المخاطر ، أو خوفه من ارتياد بيئات لا عهـد له بها : كل هـــذه الاسباب أو بعضها قـد تدفع به الى الالتجاء الى بنات العمومة المباشرة ، مما يترتب عليه ضعف ذريته ، أو ظهور بعض الخصائص السيئة فى أعقابه • وقد يحدث أحيانا ان يجىء اختيار الزوج أو الزوجة على عجل ، خصوصا اذا كان ثمة « حب خاطف » ينعدم معه كل تروٍ أو تدبر ، فلا يكون اختيار « الشريك

www.ibtesama.com/vb

الآخر » قائما على أى تبصر بكل هـــذه الاعتبارات الوراثية • وحينما يضرب المحبان صفحا عن مبادىء تحسين النسل ، أو حينما يستخفان بعنصر « الزمن » الذى لابد من مراعـــاة أهميته فى تحقق التفاهم بين الخطيبين ، فانهما يدعان كل شىء نهبـــا للصـــدفة والاتفـــاق دون أن يفطنا الى أن « الحب » وحـــده لا يكفى لتسوية الامور بين شريكين تحتاج الرابطـــة بينهما الى التعارف الصحيح والتفاهم العميق • وهكذا نعود فنقول ان عامل « الزمن » هو من الاهمية بمكان فى كل زواج حقيقى : لأن فترة « الخطبة » هى التى تسمح للفتى والفتـــاة بأن يتحققا مما اذا كان حبهما رابطة قوية جديرة بالبقـــاء ، أو ما اذا كان عاطفة عارضة سيكتب لها الزوال ، أو مـــا اذا كان مجرد نزوة جنسية سرعان ما تطيح بهـــا الفكرة الناضجة السليمة • وقـــد أثبتت التجارب بالفعـــل أن كل زواج يتم على غير أســـاس من التعارف الصحيح لابد من أن ينتهى الى فشـــل ذريع •

٤ ـ ان الناس قلما يفكرون فى الاستعداد للزواج، وكأن الزواج وظيفة تلقائية أو ظـــاهرة طبيعيـــة لا تستلزم أية خبرة ولا تتطلب أى استعداد • ولـــكن

www.ibtesama.com/vb

الواقع أن الزواج ـ مثلـه فى ذلك كمثل أى نظـام اجتماعى آخر ـ يستلزم ضربا من الاستعداد ، حتى يصبح الشخص أهـلا للقيام بأعبـائه والنهوض بتبعاته • وكما أن المواطن الصالح فى حاجة الى ضرب من التهيئة ، والعضو النافع فى المجتمع فى حاجة الى شيء من التربية ، فان الشخص الـذى يصلح للزواج Marriageable هو فى حاجة أيضا الى درجة معينة من النضج والاختمار فى التجربة وليس فى استطاعتنا هنـا أن نحصر على وجه الدقة سائر العوامل التى لابد من توافرها فى الشخص حتى يكون أهـلا للزواج ، ولكن حسبنا أن نقول ان الزواج ظاهرة سيكولوجية تقترن باكتمال نمو الشخصية ، واستعداد الفرد للتخلى عن « نرجسيته » ـ Narcissism (١) ـ • وسنرى فيما بعد أن الخطر الاكبر الذى يتهدد الحيـاة الزوجية فى كل مراحلها انما هو خطر النكوص أو الارتداد الى مرحلة « النرجسية » التى فيها يكون الشخص عاجزا عن أن يبدى من الاهتمام بالآخرين قدر ما يبدى من

---

(١) « النرجسية » هى العشق الذاتى نسبة الى « نـرجس » الذى تقول الأساطير اليونانية أنه كان مولعا بجماله ، فأحالتـه الآلهة الى زهرة النرجس ، عقابا له على انصرافه الى تأمل نفسـه والتملى بجماله !

www.ibtesama.com/vb

الاهتمام بنفسه • ولعل هذا هو السبب فى أن هناك أشخاصا لا يصلحون بحكم تكوينهم السيكولوجى للنهوض بتبعات الحياة الزوجية • ولا شك أن «الزواج» ينطوى على شىء أكثر من مجرد « الاكتواء بنار الحب » ، أو الحصول على اذن شرعى بعقد الزفاف، أو تقديم بعض الوعود القاطعة بالزواج !

واذا كان بعض علماء الاجتماع قد لاحظ أن « زواج الحرب » قلما يقترن بالنجاح ، فربما كان السبب فى ذلك هو أن هذا النوع من « الزواج الخاطف » يتم فى العادة دون المرور بفترة طويلة من الاستعداد • وهذا ما كان يحدث مثلا فى معظم البلاد الاوروبية والامريكية ابان الحرب الأخيرة : فقد كان الجندى يقترن بفتاة أحلامه غداة رحيله الى ميدان القتال ، كما كانت الفتاة لا تمانع فى التزوج من جندى هو على أهبة التوجه الى المعركة ، كما كان الآباء أسرع الى الموافقة على زواج أبنائهم منهم فى الاوقات العادية • وهكذا كانت بداية الحرب بمثابة « موسم زواج » ، فكانت حفلات الزفاف تتابع فى سرعة البرق ، دون أن تسبقها فترات استعداد أو مرحلة خطبة • ولا زال بعض الناس يتوهم أن فى استطاعته المبادرة الى الزواج دون الحاجة الى عقد

www.ibtesama.com/vb

« خطبة » ، بدعوى أنه قد اهتدى بقلبه الى الشخصية الملائمة التى تصلح له ويصلح لها ! وعلى الرغم من أننا لا ننكر وجود مثل هذه « المعرفة القلبية » ، الا أننا نرى أن تخطى المرحلة السابقة على الزواج ـ وهى تلك المرحلة التى تتم فيها عملية التعرف البطىء ، والانسجام التدريجى ، والتفاهم المتزايد ـ قد يكون عاملا من عوامل انهيار هذا الزواج فيما بعد • وليست مرحلة « الخطبة » فى الحقيقة سوى مرحلة تمهيدية يستعد فيها الخطيبان لمواجهة مشاكل التكيف العائلى ، فهى من ثم مرحلة ضرورية يتعرف فيها كل جانب على شخصية الجانب الآخر الذى سيكون عليه من بعد أن يقضى معه حلو الحياة ومرها • وقد يكون من نافلة القول أن ننبه الى ضرورة هذا « الاحتكاك » الأولى ، فاننا نعرف جميعا أن الخطيب فى حاجة الى أن يعرف مزاج خطيبته ، ونوع استجاباتها ، وأسلوبها فى التعامل ، و « معادلتها الشخصية » بصفة عامة • ولكن البعض قد يزعم بأن فترة « الخطبة » هى فى العادة فترة تمثيل وخداع ، خصوصا حينما يحاول كل طرف أن يوهم الآخر بأنه يشاركه تماما كل آماله وأحلامه ، وأنه يتجاوب معه تجاوبا كاملا فى كل ناحية من نواحى الفكر والعاطفة

www.ibtesama.com/vb

والارادة • وردنا على هذا الزعم أن الصحبة الطويلة هى الكفيلة دائما باماطة اللثام عن خبايا الشخصية ، والكشف عن خفايا الحياة اللاشعورية • هذا الى أننا نخطىء اذ نظن أن الزواج الموفق يتم دائما بين شخصين متشابهين تمام التشابه ، وكأن فى الامكان أن نعثر على ظاهرة « تطابق » تام فى عالم النفوس ! والواقع أن الزواج الموفق يتم دائما بين شخصين مختلفين ، ولكن اختلافهما لا ينطوى على تعارض جوهرى من حيث « أسلوب المعيشة » لدى كل منهما • ومعنى هذا أن المهم لتحقيق « التوافق » بين الطرفين ألا يكون ثمة تفاوت ضخم بينهما من حيث مستوى الذكاء ودرجة تكامل الشخصية • هذا الى أنه حينما تختلف « سرعة الحياة » Speed of Life فى نظر أحد الطرفين عنها لدى الآخر ، أعنى حينما يكون أحدهما سريعا فى تفكيره ونزوعه ، بينما الآخر بطىء فى كل تصرفاته ، فان من المحتمل أن يؤدى هذا الاختلاف الى « تنافر » غير محتمل بين الشخصيتين • وقد يكون من المستحيل فى كثير من الأحيان أن يتم « التوافق » بين شخصين لا يستطيع الواحد منهما أن يلحق بالآخر ، ولا يملك الواحد منهما أن ينتظر الآخر !

وقد دأب الناس على اعتبار « توافق المزاج » شرطا

www.ibtesama.com/vb

ضروريا لكل زواج موفق ، ولكن كثيرا ما يكون اتفاق المزاج عسير الاحتمال كاختلافه تماما • حقا انه لمن المزعج للزوج أن يرى زوجته تقف باردة أو غير مكترثة بازاء شيء يثور له هو ويتحمس ، ولكن من المؤكد أيضا أن البيت الذى يثور فيه كل من الزوج والزوجة لاتفه الاسباب هو بيت صاحب لا يمكن أن يعرف السلام ! واذن فمن الخطأ أن نتصور التوافق بين الزوجين على غرار « معادلة » رياضية أو عملية « تطابق » هندسى ، لأن التفاهم الواجب بين الطرفين لا يقتضى أن يكون الواحد منهما صورة « طبق الأصل » للآخر ! ومع ذلك ، فان الزواج الذى يتم بين شخصين لا تجمع بينهما أية روابط جنسية أو دينية أو ثقافية هو فى العادة زواج خطير تتهدده منذ البداية عوامل الانهيار • وبعبارة أخرى فانه لابد عند اختيار « الشريك الآخر » من ملاحظة هذه الحقيقة الهامة ألا وهى أن كل زواج يتم بين طرفين مختلفين من حيث الجنس ، والعقيدة ، والتراث الثقافى ، والبيئة الاجتماعية ، هو زواج يستلزم الكثير من الجهود فى سبيل الوصول الى تحقيق درجة كافية من « التكيف » أو « التوافق » • حقا ان رغبة الطرفين الصادقة فى التغلب على مثل هذه الصعاب قد تعينهما على

www.ibtesama.com/vb

تحقيق شيء من « التكيف » على الرغم من كل تلك العوامل المضادة ، خصوصا وأن « الزواج » (كما نعلم) ليس ظاهرة طبيعية تسير من تلقاء نفسها ، وانما هو « مهمة » علينا أن ننهض بأدائها ، ولكن الملاحظ عادة أن هذه المهمة قد تصبح عسيرة ، ان لم نقل مستحيلة ، حينما تكون أوجه الخلاف بين الطرفين من السعة بحيث تصبح الجهود الموضوعة على عاتقهما لتحقيق التوافق هى مما لا يستطيع أى شخص عادى أن ينهض به ٠

٥ ـ ولقد حاول كاتب هذه السطور أن يجمع بعض آراء لشبان مصريين وسودانيين ، وفتيات مصريات وسودانيات ، عن « الزوج المثالى » و « الزوجة المثالية » ، فاستطاع أن يتحقق من أن العامل الاساسى الذى يكمن من وراء « الرغبة فى الزواج » هو نزوع كل من الرجل والمرأة نحو « الحياة المشتركة » التى تقضى على « الشعور بالوحدة » ٠ فليس الزواج مجرد اشباع جنسى ، وانما هو الى حد كبير علاقة اجتماعية تسمح للفرد بالخروج عن عزلته الاليمة ٠ وقد أجمع كثير من الشبان على القول بأن «الزوجة المثالية هى الشريكة الحقيقية التى يجد لديها الرجل

www.ibtesama.com/vb

العون والحب والحنان » (١) · ولم يغفل بعض الشباب المثقف جانب التعليم والتربية فى اجابته ، فقال قوم منهم بأن « الزوجة المثالية هى الشخصية الناضجة التى تحسن التصرف فى كل شىء » · ولم يهتم شبابنا كثيرا بعناصر أخرى كالصحة الجيدة ، وروح البهجة والمرح، والميـــل الى التفاؤل ، ولو أن الكثيرين قـد أشاروا الى أهمية دمـــاثة الخلق ، وروح الصـبر والتحمل ، والرغبة الصادقة فى التعاون مع الزوج · ـ أمـــا فيما يتعلق بصفات « الرجـل المثـالى » فقد أجمعت معظم الفتيات على القول بأنه لابـــد من أن يـكون « شخصية قوية يمكن الاعتماد عليهـــا » · ولم تهتم فتياتنا كثيرا باشتراط صـــفات الروح الاجتماعية ، والاخلاق الدمثة ، والميل الى التفاؤل ، واتساع الافق الفكرى ، ولـكن البعض منهن قـــد حرص على أن يقول بأن الزوج المثـالى لابد من أن يكون مولعـــا بالاطفال ، قديرا على رعاية الاسرة ·· الخ ·

---

(١) يلاحظ أننا لم نقم بعمل استفتاء علمى (بمعنى الكلمة) ، وانما حاولنا أن نجمع بعض آراء تسمح لنا بأن نحكم على الاتجـاه الجديد للرأى (فى مصر والسودان) بين الشباب المثقف بصـفة خاصـــة ، ومن هنا فان هذه الآراء قد لا تعبر عن رأى الجمهور بصفة عامة ·

www.ibtesama.com/vb

ولكن الجديد فى الاسئلة التى قمنا بتوجيهها الى المجموعة السابقة من الشـــبان والفتيات هى أننـــا وجهنا اليهم السؤال التالى : « هـــل يمكن التنبـــؤ مقدما بنجاح الزواج أو فشله ؟ » ، فكانت الاجابات بنعم حوالى ١١٪ بينما أجمع الباقون (فيما عـــدا نسبة ضئيلة امتنعت عن الاجـــابة لعدم فهمها للسؤال أو لاستحالة الاجابة عليه) على أنه ليس من ســـبيل الى التنبؤ مقدما بنجاح الزواج أو فشـــله • وكانت حجتهم فى استحالة هذا التنبؤ راجعة فى معظم الاحيان الى ايمانهم بالحظ ، أو الى اعتقادهم بصعوبة الالمـام بكل العوامل المحددة للوفاق الزوجى فى المستقبل • أما النسبة الضئيلة التى قالت بامكان التكهن مقدمـــا بنجاح الزواج أو فشله ، فقـد ذهب فى معظم الاحيان الى أن « الجواب يقرأ من عنـــوانه » أو أن « بوادر النجاح أو الفشل تظهر منذ عهـــد الخطبة » ، أو أن « التحليل النفسى لا شك قادر على اســـتباق الزمن والتنبؤ بالفشـــل أو النجاح » •• الخ • والواقع أن كثيرا من الباحثين فى أمريكا قد حاولوا أن يستفيدوا من دراساتهم للكثير من « الازواج الموفقين » و « الازواج الأشقياء » من أجـــل التوصل الى تحديد « قائمـــة للتنبؤ بالزواج » تعيننا على التكهن مقدما بما سيعرض

www.ibtesama.com/vb

لهـــذا الزواج أو ذاك (١) • ولكن هـــذه القائمة تستلزم الالمـــام بمعلومات كثيرة عن الخطيبين مثـل مستوى ذكائهما ، والاسرة التى ينحدر منهـــا كـل منهما ، ودرجة سعادة الوالدين فى كل أسرة ، والحالة النفسية لكل طفل منهما ابان الخمس سنوات الاولى من حياته ، والتربية الجنسية التى تلقاها ، والمـــدة التى استغرقتها « الخطبة » ، وأسلوب كل منهما فى التعامل مع الآخرين •• الى غير ذلك من المعلومات الدقيقة التى قـــد يستحيل فى بعض الاحيان التوصل الى معرفتها على وجـــه التحديد • وليس من شك فى أن «التكيف» فى الزواج عمليـــة معقـــدة تنطوى على الكثير من « المتغيرات » (Variables) ، فضلا عن أنه قـد يكون من المستحيل فى بعض الاحيان أن نتكهن ســـلفا ببعض العوامل التى قد تظهر فجأة فى حيـــاة الزوجـين ، ولـكن من المؤكد أن هنـاك ثلاثة عوامل (على الاقل) تؤثر تأثيرا كبيرا على السعادة الزوجية ، وهى جميعا مما يمكن الوقوف عليه قبل الزواج ، ونعنى بهـــا سعادة الابوين فى الاسرة التى ينحدر منها كل مقدم على الزواج ، وســعادة الشخص نفسه ابان الطفولة ،

---

(١) cf Harvey. J. Locke : "Predicting Adjustment in Marriage", Henry Holt Co., & New York 1951 Ch. XV.

www.ibtesama.com/vb

ونوع علاقته بأمه وهل هى قد كانت قائمة على الصراع أم لا (١) • ومعنى هذا أن ما يحدد سعادة الشخص البالغ فى حبه وعلاقته الزوجية انما هو صلاته العاطفية ابان الطفولة • ولهذا فان كثيرين من علماء النفس يؤكدون أن الطفل المحروم أو المهمل أو الشقى لابد من أن يصبح فيما بعد أبا شقيا أو زوجا سيئا أو شريكا غير موفق •

حقا ان بعضا من الباحثين لا زال يميل الى القول بأن التنبؤ مقدما بنجاح الزواج أو فشله هو أمر عسير تكتنفه الصعوبات من كل صوب ، ولكن الدراسات الدقيقة التى قام باجرائها بعض العلماء الممتازين (مثل برجس (Burgess) وكوترل (Cottrell) ، ولوك (H. J. Locke) ، وترمان (L. M. Terman) وغيرهم) قد أظهرتنا على أن « التكيف » فى الخطبة يقترن بالتكيف فى الزواج ، فضلا عن أن تاريخ كل خطيب من الخطيبين يعيننا الى حد كبير على التنبؤ بسلوكه العام بعد الزواج ، خصوصا اذا استطعنا أن نجمع معلومات دقيقة عن حياته فى السنوات الخمس الاولى

---

(١) John Bowlby : "Child Care and the Growth of Love", Penguin, 1955, PP. 93 — 95.

www.ibtesama.com/vb

ابان الطفولة · وسنرى فيما بعد أن عملية « التكيف الزوجى » تتوقف على كثير من العوامـــل التى يمكن الوقوف عليها مقدما مثـل درجـة تكامل الشخصية ، ومـدى تحرر الفرد من « النرجسية » ، وأســلوبه الخاص فى الاخذ والعطاء ، ومـدى اتصافه بالروح الاجتماعية والقدرة على تكوين صداقات ، وطريقته فى الاستجابة للمؤثرات العنيفة والمنبهات المباغتة ، ونوع التربية التى تلقاها ابان الطفولة ، وصلاته المختلفة بأبويه واخوته ·· الخ · ولا شك أن مثـــل هـــذه المعلومات الدقيقة هى الكفيلة بأن تعيننا على تقـــديم نصائح « وقائية » لكافة الراغبين فى الزواج ·

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثـانى

التكيف الزوجى

٦ ـ اذا تصفح المرء كتب علم النفس المتـداولة فى العادة بين الناس فقد يروعه أن « الزواج » فى نظر علماء النفس هو فى الغالب « مشكلة » ، ان لـم نقل «أزمة» (Crisis) ، وذلك لأنه يمثل فى رأيهم مرحلة خطيرة فى حيـــاة الفرد كمرحلة المراهقة أو مرحلة البلوغ • ونحن لا ننكر أن الحيـــاة الزوجية تقتضى درجـــة معينة من النضج الجنسى والنفسى ، ولكننا لا نميل الى التهويل والمبالغة كمـــا يفعل الكثير من المؤلفين فى حديثهم عن الازمات النفسية التى يمر بها المراهقون ، والتجارب الحاسمة التى يعانيها المتزوجون فى بـداية حياتهم الزوجية • حقـــا ان « الغريزة » (ان كان ثمة غريزة) لا تكفى وحدها لمواجهة الموقف ، كما يزعم أولئك السـذج الذين يريدون للطبيعة أن تتكفل بحل مشكلاتها بنفسها ، ولـكن من الملاحظ فى كثير من الاحيان أن عامل الزمن قـــد يلعب دورا هاما فى تحقيق النضج الجنسى والنفسى الذى تقوم عليـــه الحياة الزوجية • وليس من مصلحة الراغبين فى الزواج أن نصور لهم الحياة الزوجية على أنها تجربة خطيرة

www.ibtesama.com/vb

تستلزم استعدادا شـــاقا وخبرة طويلة ، كأن الزواج مهمة عسيرة لا يمكن أن ينهض بهـــا الا العـــارفون ببواطن النفس البشرية من علماء التحليل النفسى ، ولـــكن ليس من مصلحتهم أيضا أن نصور لهم الحياة الزوجية على أنهـــا نعيم أرضى سرعان ما تنكشف لهـــم مباهجه بمجرد ما يجد الواحد منهم نفســـه فى أحضان الآخر ! والواقع أن الشـــاب الـــذى سمع الكثير عن أهمية « ليلة الزفاف » ، وخطورة « التجربة الجنسية » الأولى فى حيـــاة المرأة ، قد يجد نفســـه عاجزا فى الوقت المناسب عن اتخاذ المسلك الملائم بازاء زوجته ، مما قد يترتب عليه فى بعض الاحيـــان التجاؤه الى الطبيب من أجل « فض بكارة » زوجته ! والشـــاب الذى يجهل كل شىء عن التركيب الفسيولوجى لجهاز المرأة قد يجد نفسه فى « ليلة الزفاف » بازاء موقف معقـــد يستلزم خبرة معينـــة لا تستطيع « الفريزة » وحدها أن تمده بها ! فاذا أضفنا الى هـــذا وذاك أن تربية الزوجة الدينية أو الاخلاقية قـــد تؤدى بهـــا الى اتخاذ موقف « المقاومة » ، أو الالتجـــاء الى بعض الاساليب الدفاعية ، أمكننا ان نفهم أهمية « التكيف الجنسى » فى حيـــاة الزوجين باعتباره السبيل الاول الى تحقيق سائر مظاهر التكيف الزوجى الاخرى .

www.ibtesama.com/vb

وهنا نجد أن التقاليد الاجتماعية فى معظم البيئات قـــد درجت على أن تحيط « الزواج بهالة سحرية » من الغموض والتقديس ، فضـــلا عن أنهـــا كثيرا ما تلزم المتعاقدين باشهار زواجهما فى حفلة عامـــة تبـدو فيها مظاهر الفرح والاغتباط ، ممـــا يترتب عليه فى العادة أن يفاجأ الزوجان بعد الزفاف بخطورة التجربة التى تنتظرهما ، خصوصا وأن العروس فى بعض الاحيان قد تصـــاب بخيبة أمـل شديدة حينما تقارن بين « رومانتيكية » الحب ، وحقـارة التجربة الجنسية الاولى ! ولســنا نريد أن نفيض فى الحديث عن هـــذه الظاهرة المعادة ، فان كتب عـــلم النفس الشعبية قـــد وجدت فيها مـادة خصيبة للتهويـــل والاغراق والمبالغة . ولـــــكن حسبنا أن نقول أن « التكيف الجنسى » للزوجين قـد يقترن بتجربتهمـا الجنسية الاولى ، فتصاب المرأة بصدمة نفسية ترتبط بمسائل الجنس ، أو يقع فى ظن الزوج أنه مصـــاب بضعف جنسى نتيجة لسوء تصرفه فى ليلة الزفاف . وفى كلتا الحالتين قـــد يحتفظ الزوجان لتلك الليلة بأســـوأ الذكريات على العكس ممـا يتوهم الجاهلون ببواطن الامـور ! وهكذا الحال أيضـــا بالنسبة الى « شهر العســـل » ، فقد يقبل عليه العروسان بروح

www.ibtesama.com/vb

رومانتيكية لا ترى من حولها سوى السعادة والنعيم ، لكى لا يلبثا أن يتحققا من أن الزواج تبعة جدية وعلاقة اجتماعية ، فلا يكون « شهر العسل » ـ خصوصا بالنسبة الى الزوجة ـ سوى بداية سيئة للتبعات والالتزامات التى ستنطوى عليها الحياة الزوجية العادية من بعد • وأما حينما يسلك الزوجان بتعقل وحكمة فى مستهل حياتهما الزوجية ، فان الحقيقة لن تصدمهما فيما بعد ، بل سيكون كل منهما على استعداد لمواجهة مشكلات الحياة الزوجية بروح واقعية لا أثر فيها للخيال الجامح أو الرومانتيكية المتطرفة •

٧ ـ أما اذا عمدنا الآن الى تحديد العوامل المؤثرة فى تحقق « التكيف » بين الزوجين ، فاننا سنجد أن العامل الجنسى ـ على الرغم مما له من أهمية ـ ليس بالعامل الوحيد الذى تتحدد على أساسه علاقة كل طرف بشريكه الآخر • والواقع أن « تاريخ » الزوجين سيلعب دورا هاما فى تحديد السلوك العام الذى سوف يتخذه الواحد منهما بازاء الآخر ، نظرا لأن كلا منهما يحمل معه منذ البداية آثار « الانماط السلوكية » التى درج على اتخاذها بازاء والديه وأقربائه ابان الطفولة والمراهقة • وقد ذهب بعض أنصار المدرسة

www.ibtesama.com/vb

الفرويدية الى أن كثيرا من العلاقات الزوجية الصريحة ليست سوى « رموز » لأدوار ومواقف تكونت فى عهد الطفولة نتيجة لسلوك الطفل بشكل معين نحو أبيه أو أمه أو اخوته أو أقربائه • ولعل من هذا القبيل مثلا ما لاحظه البعض من أن الرجل قد يسلك بازاء زوجته سلوكه نحو أمه التى طالما اعتمد عليها ، أو سلوكه نحو أخته التى لم يكن يكن لها سوى البغض والكراهية ، أو سلوكه نحو أخيه الذى كان يشعر نحوه بالحب والتقدير • وهكذا الحال أيضا بالنسبة الى المرأة ، فانها قد تتخذ بازاء زوجها نفس الموقف الذى كانت تتخذه ـ طفلة ـ بازاء أبيها الوقور ، أو أخيها الاصغر المكروه ، أو أختها الكبرى المحبوبة • وقد يتدخل عامل « التناقض العاطفى (Ambivalence) فى الموقف ، فيتخذ الزوج من زوجته مواقف مختلفة تقابل أدوارا متعددة لعبها فى صباه نحو أمه أو أخته أو أخيه ••• هذا الى أن الزوج الذى كان فى صباه طفلا مدللا قد يستمر فى استعمال نفس الاساليب التى كان يلتجىء اليها فى طفولته ، بقصد اثارة اهتمام زوجته على نحو ما كان يثير اهتمام والديه • وكثيرا ما يكون لهذه « الانماط السلوكية » التى تكونت ابان الطفولة دور كبير فى تحديد مصير

www.ibtesama.com/vb

الاسرة ، والعمل على نجاح الزواج أو فشله (١) ٠

فاذا ما نظرنا الآن الى مشكلة « التكيف » فى ذاتها، وجدنا أن هناك علاقة مباشرة بين السعادة الزوجيـة والمدة اللازمة لتحقق التكيف بين الزوجين : فكلمـا كانت هـذه المدة قصيرة ، كان احتمال التوفيق فى الزواج أكبر ، وكلما كانت الدوائر التى فشـل الزوجان فى تحقيق التكيف داخلها أقـل ، كان احتمال وصولهما الى تحقيق السعادة الزوجية أعظم ٠ وقـد ثبت بالتجربة أن « تكيف » الزوجين فى دائرة النشاط الجنسى هو أصعب مظاهر التكيف وأحوجها الى عنصر « الزمن » ٠ وقد يكون من الحديث المعـاد أن نقول أن صعوبة هـذا التكيف ترجع فى بعض الاحيان الى وجود بعض آراء سابقة لدى الزوجة عن « الجنس » Sex باعتباره أمرا شائنا ، أو عن « الحياة الجنسية » باعتبارها شرا لابد منه ، أو عن « العملية الجنسية » باعتبارها « فعلا قذرا » لا متعة فيه ولا لذة ٠٠ وليس من شك فى أنه حينما تقبل الزوجة على الحياة الجنسية بهذه العقلية ، فانها لا محالة واجدة صعوبة كبرى فى

---

(١) Cf. K. Young : "Personality and Problems of Adjustment". London, Routledge & Kegan Paul, 2d ed; 1952, PP. 487 — 488.

www.ibtesama.com/vb

أن « تكيف » نفسها مع النواحى البيولوجية الضرورية للحياة الزوجيـــة • وانه لمن الواضح أن « التكيف الجنسى » يتوقف على عوامل كثيرة لعل أهمها التربية الجنسية التى تلقاها كل من الطرفين ، ومـدى خبرة كل من الزوج والزوجة بالنشاط الجنسى ، ودرجـــة « الاشباع » التى يبلغانها فى علاقتهما الجنسية ، ومدى ارتباط الحافز الجنسى عند كل منهما بعـــدد مرات الجماع وأسلوب الواحد منهما فى الاستجابة للآخر•• الخ • وقـــد قامت احـــدى الباحثات باجراء بعض الاختبارات فى هـــذا الصدد ، فتوصلت الى حقيقة هامة مؤداها أن « الاستعداد للحياة الجنسية هو عامل هـــام تتوقف عليه السعادة الزوجية » • ومعنى هذا أن هناك علاقة وثيقة بين « الخبرة الجنسية » ودرجة ارتيـاح كل من الزوجين للتجربة الجنســـية الاولى • وفضـــلا عن ذلك فانه حينما تجىء هـــذه التجربة ملائمة ، فان هناك احتمالا كبيرا فى أن تكلل الحياة الزوجية بالنجاح • وأما حينما تجىء هـــذه التجربة أليمة فاشلة ، فان من المحتمل أن يعقبها فشـــل فى الحياة الجنسية المستقبلة ، خصوصا اذا خلع أحـــد الزوجين (أو كلاهما) على هـــذه التجربة الاولى دلالة حاسمة • ولكن ليس أمعن فى الخطأ من أن يتوهم المرء

www.ibtesama.com/vb

أن فشل التجربة الجنسية الاولى لابد حتما وبالضرورة من أن يعقبه فشل مستمر فى كل أدوار الحياة الجنسية المقبلة • هذا الى أن الفشل فى « التكيف الجنسى » قد يكون تعبيرا رمزيا عن انعدام التوافق فى مجالات أخرى ، وعندئذ يكون « الاختلاف الجنسى » نتيجة (لا سببا) للشقاق القائم بين الزوجين • ولعل هذا هو ما عناه أحد الباحثين حينما قال أن « الحياة الجنسية » للزوجين هى الجهاز الدقيق الذى يسجل أعمق الاضطرابات التى تطرأ على الزواج ، حتى حينما تكون كل المظاهر (على السطح) موحية بالهدوء التام ! (١) • وعلى كل حال ، فان من المؤكد أن للعامل الجنسى أهمية كبرى فى تحقيق « التكيف » بين الزوجين ، بدليل أن هناك احتمالا كبيرا فى أن يتم التوافق بين الطرفين حينما تكون شدة الحافز الجنسى عندهما متساوية ، بينما يزداد احتمال « الشقاء » فى الحياة الزوجية حينما تزيد قوة الحافز الجنسى عند المرأة عنها عند الرجل (٢) •

---

(١) Cf. Oswald Schwarz, "The Psychology of Sex", London, 1953, P. 264.

(٢) Katherine B. Davis : "Factors in the Sex Life of Twenty-Two Hundred Women", New York, Harper, 1929. PP. 76 — 77.

www.ibtesama.com/vb

هذا وقد لاحظت الباحثة الامريكية التى أشرنا اليها أنه ليس ثمة علاقة مباشرة بين استعمال « موانع الحمل » ودرجة السعادة الزوجية ، ولكنها قد وجدت أن حوادث الاجهاض أكثر حدوثا (حوالى ثلاثة أضعاف) لدى الاسر الشقية منها لدى الأسر السعيدة. وأما فيما يتعلق بشدة « الحافز الجنسى » لدى كل من الرجل والمرأة ، فقد اختلفت الآراء حول مدى صحة الرأى القائل بازدياده لدى الرجل عنه لدى المرأة ، على الرغم من اعتراف الكثيرين بأن نشاط المراهقين الجنسى أكبر فى العادة من نشاط المراهقات. والرأى الذى يميل الكثيرون الى الاخذ به هو أنه اذا صح وجود مثل هذه الفوارق الجنسية بين الرجل والمرأة ، فانها لا ترجع الى عوامل بيولوجية وانما ترتد فى النهاية الى عوامل اجتماعية وثقافية . وليس أدل على ذلك مما لاحظه بعض الباحثين من أن احتمال بلوغ النساء المثقفات درجة « الاشباع الجنسى » أقل فى المتوسط من احتمال بلوغ النساء العاديات مثل هذه الدرجة . ولم يتوصل بعد علماء النفس الى تحديد العلاقة الدقيقة الموجودة بين المستوى الاجتماعى لكل امرأة ، ونوع استجابتها أو طريقة سلوكها بازاء الرجل . ولكن البعض قد لاحظ أن الازواج و(الزوجات) الذين ينحدرون من مستوى اجتماعى

www.ibtesama.com/vb

راق هم فى العادة أميل الى التسامح فيما يتعلق بمسائل الجنس من الازواج (والزوجات الذين ينحدرون من أوساط اجتماعية حقيرة • ومهما يكن من شيء ، فان مسائل « التكيف الجنسى » تحتل أهمية كبرى فى حياة الزوجين ، خصوصا وانها تحدد درجة « التآلف » التى تتم بين الزوج وزوجته • وليس من شك فى أن الزيجات السعيدة هى وحدها التى يتحلل فيها الزوجان من ملابسهما عند الجماع ، وهى وحدها التى يستطيع فيها كل من الرجل والمرأة أن يتجول فى المنزل عاريا دون خجل أو حياء ! ولكن الحقيقة الهامة التى ينبغى أن نذكرها دائما هى أن الفترة الاولى من الحياة الزوجية لابد من أن تكون فترة « تكيف جنسى » ، وسواء قصرت هذه الفترة أو طالت ، فان أصداءها لابد من أن تتردد فى كل مراحل الحياة الزوجية من بعد •

٨ ـ بيد أن « التكيف الجنسى » ، كما سبق لنا القول ، ليس سوى مظهر واحد من بين مظاهر أخرى كثيرة للسعادة الزوجية • والواقع أن هناك عوامل أخرى عديدة تؤثر على الحياة الزوجية مثل عادات الزوج والزوجة ، وأسلوب كل منهما فى الانفاق ، وعلاقتهما بالاسرتين المتصاهرتين ، وطريقتهما فى تمضية أوقات فراغهما ، وآرائهما الدينية والسياسية

www.ibtesama.com/vb

والاقتصادية ٠٠ الخ ٠ ولا شك أن هذه العوامل حينما تتضافر بعضها مع البعض الآخر فانها قد تتحكم فى كل مصير الاسرة ، أو هى قد تؤثر على الاتجاه العام للحياة الزوجية ان نحو السعادة أو نحو الشقاء ٠ وسنحاول فيما يلى أن نعرض لبيان أهم هذه العوامل ، مع اهتمامنا فى الوقت نفسه بايضاح العلاقة بينها بعضها والبعض الآخر ، خصوصا وأن هذه العوامل فى العادة تؤثر وتتأثر بعضها بالبعض الآخر ٠ ولنضرب لذلك مثلا فنقول : ان ثمة صلة وثيقة بين العامل الجنسى والعامل المادى ، فان الزوجة حينما تشعر بتفوق زوجها عليها من الناحية الاقتصادية ، نظرا لأنه هو الذى يكسب عيش الاسرة ، فانها قد تحاول أن تقوم بضرب من « التعويض » فى المجال الجنسى بأن تحرم زوجها جنسيا ، أو بأن تضن عليه بمفاتنها ومحاسنها ، اللهم الا اذا قبل بعض الشروط التى تمليها عليه ! وهكذا نجد أن الزوجة قد لا تقبل الاستسلام لزوجها الا فى نظير بعض الامتيازات المادية أو الوعود الشرائية ، خصوصا اذا كانت امرأة أنيقة تميل الى التزين والتجمل !

والمشاهد فى العادة أنه بمجرد ما ينقضى « شهر العسل » ، فان العروسين سرعان ما يجدان نفسيهما

www.ibtesama.com/vb

مضطرين الى مواجهة مشكلات التكيف التى لم تخطر لهما على بال • وتبعا لذلك فان أحلام الحب لا تلبث أن تتبدد سريعا تحت وهج الحقيقة ، فلا يجد كل طرف بدا من أن يحاول فهم الآخر على ما هو عليه فى ضوء الواقع الأليم ! وهنـــا قـد يكتشف الواحد منهما فى شخص شريكه مخلوقا مهملا لا يعنى بالمظهر ولا يكترث بنظافة البيت ، أو شخصا قذرا لا يراعى أبسط مبادىء النظافة ولا يحرص على هندامه ، مما قـــد يتولد عنه فى نفس أحـــد الزوجين شعور بالتقزز أو النفور نحو الطرف الآخر • وكثيرا ما تكون مثل هذه الاحداث الصغيرة ســـببا فى شـعور الزوجـــة (مثـــلا) بأنها قـد أساءت الاختيار ، أو أنها قـــد هبطت الى مستوى اجتماعى غير مستواها ، مما قد يترتب عليه حدوث اصطدام بينها وبين زوجها ، أو فقدانها لـكل شعور بالاحترام نحو شريك حياتها • ولا ريب أن مثـل هـــذه الاختلافات الصغيرة سرعان ما ترتبط بمواقف أخرى أكثر منها أهمية وأعمق دلالة . فلا يلبث الخلاف أن يدب فى أوصال الاسرة •

ثم هناك المشكلة المالية التى قد تكون مناســـبة لظهور اختلافات جوهرية بين الزوج وزوجتـه : فان

www.ibtesama.com/vb

الزوج قد يتهم زوجته بالاسراف وسوء التصرف فى ادارة المنزل ، أو هى قد تأخذ عليه تمسكه بالاشراف على شئون البيت المالية فى حين أنه لا يحسن الانفاق ولا يضع الشيء فى موضعه ، وفى كلتا الخالتين لابد من أن يشعر كل من الطرفين بأن الآخر يهضمه حقه أو أنه يسيء معاملته ، مما قد يترتب عليه شعور أليم بالظلم الواقع عليه من قبل الآخر • ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن الزوج المسرف قلما يسعد مع الزوجة المقترة ، كما أن الزوجة المبذرة قلما ترتاح الى العيش فى صحبة زوج بخيل • وقد اختلف الباحثون فى تقدير مدى أهمية العنصر المادى فى السعادة الزوجية فذهب قوم منهم الى أن المركز الاقتصادى للعائلة قلما يكفى لتوفير أسباب السعادة للزوجين ، اذا كانت أسباب الوفاق السيكولوجى معدومة بين الطرفين ، بينما ارتأى قوم آخرون أن « الفقر » عامل هدم قوى فى صميم كيان الاسرة ، خصوصا فى المجتمعات الحديثة حيث تزداد تكاليف الحياة ويرتفع مستوى المعيشة • ومهما يكن من شيء فان أحدا لا يستطيع أن ينكر أن « المال » يلعب دورا هاما فى صميم العلاقات القائمة بين الزوجين • ويظهر تأثير المادة على السعادة الزوجية بصفة خاصة حينما يؤدى اسراف الزوج أو الزوجة

www.ibtesama.com/vb

الى الاستدانة ، فلا تلبث هموم البيت أن تصبح حملا ثقيلا لا طاقة للطرف الآخر باحتماله ، وتصبح الحياة الزوجية فى نظره جحيما لا يطاق • وقد يحدث أحيانا أن يرتبط اهمال الزوج (أو عدم اهتمامه بالملبس) بشعور الزوجة نحـوه بضرب من النقص أو القصور فنراها تحاول أن تنتقص من قدره بأن تكشف أمـام الناس عن مظاهر اهماله ، وكأن لسـان حالها يقول : « ولكننى أعظم من زوجى لاننى على الاقـل مخلوق منظم ! » •وفى مثـل هـذه الاحوال ، تتخذ مظاهر الاختلاف البسيط فى السلوك الفردى أهمية رمزية فترتبط بأمور أخرى ذات بال فى مجال التكيف العام بين الزوج والزوجة •

٩ ـ ولابد للزوجين أيضا ـ فى مستهل حياتهما الزوجية ـ من أن يواجها مشكلة أخرى من مشـاكل « التكيف » ، الا وهى مشكلة التفاهم مع أسرة الزوج أو الزوجة ، والتعامل مع أصدقاء الزوج أو الزوجة • وتظهر هذه المشكلة بوضوح حينما يكون تعلق الزوجة بأسرتها أكبر من تعلقها بزوجها (خصوصا فى بداية الحياة الزوجية) ، أو حينما يجد الزوج نفسـه مضطرا الى قطع بعض عـلاقاته القديمة مع أصدقاء ظـل مرتبطا بهم طوال حيـاته السـابقة • والواقع أن

www.ibtesama.com/vb

« الزواج » كثيرا ما يغير من مجرى الحيـــاة العادية لدى كل من الزوج والزوجة ، لانه يضطر كلا منهما الى أن يكون اتصالات جديدة ، أو أن يقلع عن بعض العلاقات القديمة ، مما قد يترتب عليه ارتباك مؤقت فى حياة الفرد ، أو تغير مفاجىء فى عاداته المألوفة. وكثيرا ما يحدث أن تعترض الزوجة على أن يواصـل زوجها علاقاته القديمة ، فلا يكون منه سوى أن يمنعها من التردد على بعض صديقات الطفولة أو المراهقة ، مما قد يترتب عليه استياء الزوجة ونزوعها نحـــو المقاومة . وتزداد هذه المشكلة خطورة ـ فى البـــلاد الاوروبية والامريكية ـ حينما تكون صداقة الزوج أو الزوجة مرتبطة بالجنس الآخر ، فيتدخل عامـــــل « الغيرة » ، ويحرص الزوج على أن تمتنع زوجته عن استقبال أصدقائها القدامى ، أو تصر الزوجـة على أن يقطع زوجها كل علاقة مع زميلاته فى الدراسة أو رفيقاته فى الطفولة والمراهقة. وحينما يكون للزوجة عمل لها فيه رفاق وأصدقاء كانت على صلة بهم قبل الزواج ، فانهـا قـــد لا تستسيغ هـــذا الحجر المفاجىء على حريتها من جانب زوجها ، أو هى قد لا تفهم سر تلك المقاطعة لاصدقاء لا تجمعها بهم أية علاقة جنسية أو غرامية . وهكذا الحال أيضا بالنسبة للازواج (فى أوروبا وأمريكا) حينما تضطرهم طبيعة عملهم الى

www.ibtesama.com/vb

التعامل مع نســـاء لا تجمعهم بهن سوى رابطة المهنة، فلا تستسيغ زوجاتهم مثــل هــذه العلاقات ، بل تصر الواحدة منهن على أن يكف زوجها عن مواصلة مثـــل هـــذه العلاقات بدعوى أنها على ثقة من أن لها طابعا غراميا ! ولا ريب أن الاصل فى هـــذه المخاوف هـو أفكار المرأة التقليدية عن الغيرة الجنسية ، ورغبتها الدفينة فى المحافظة على زوجها ، وحرصها الشديد على تجنيبه أسباب الخيانة والانحدار الخلقى •

أما فى الشرق عندنا فان هـــذه المشكلة ترتبط على الخصوص بأسرة الزوج أو الزوجة ، اذ يشعر كل من الطرفين أن الطرف الآخر لا زال يحل من نفســـه أسرته وأهله منزلة كبرى قـــد لا تعادلها منزلته هو عنده • وليس بمستبعد فى الواقع أن نرى زوجا نشأ على التعلق بأمه ، ودأب على النظر الى الوجود بأسره من خلال منظارها ، بحيث لم يعد فى وسعه حتى بعـد الزواج أن يقطع « الحبل السرى » المعنوى الذى يربطه بأمه ، أو أن يكف عن المقارنة فى كل لحظة بين زوجه وأمه ، معربا بوضوح عن ايمانه الدفين بأن المـــرأة لا تكون « مثالية » الا اذا كانت على شاكلة أمـــــه ! كذلك ليس من النادر أن يلتقى المرء بزوجة ظلت بعد الزواج طفلة تعتمد فى كل شىء على أمها ، ولاتستطيع أن تتصرف فى أمور بيتها الا على ضوء ما تمليه عليها

www.ibtesama.com/vb

والدتها ، مما قـــد يضيق به صدر الزوج الذى يريد لزوجته أن تكون شخصية مستقلة تصدر فى أفعالهـا عن وعى ناضج وتفكير شخصى · ولا شك أن مثـل هذه الزوجة أو ذلك الزوج انمـــا ينقصه نضج الشخصية الذى يسمح للفرد بأن يستقل فى تفكيره وسلوكه عن والديه (أو من كان يقوم مقامهما) · ولكن حتى اذا كانت شخصية الزوج (أو الزوجة) ناضجة مكتملة ، فان مجرد السكنى مع أسرة أحدهما قد تكون كافيـــة لتوليد الكثير من المشاكل النفســـية والاجتماعية فى حياتهما الزوجية · وربما كان السر فى ذلك يراجع الى اختلاف كل من الجيلين اللذين تنتسب اليهما الأم والزوجة ، فضلا عن اعتقاد الام بأن الزوجة شخصية غريبة قـــد استأثرت بابنها دون أدنى حق ، ممـــا يترتب عليه ظهور « الغيرة » بينهما ، وتنافسهما بشتى الاساليب فى العمل على اكتساب عطف الرجل · ولا زلنا فى حاجة الى الاسهاب فى الحديث عن هذه «الغيرة» فان مظاهرها ذائعة معروفة ، وأسبابها عادية مألوفة(١)

---

(١) يلاحظ أن التربية عندنا مسئولة الى حد كبير عن هذا الوضع الاجتماعى ، فاننا نربى أولادنا لأنفسنا لا لأنفسهم ، ولهذا فـــان الأم قلما ترحب بزواج ابنها ، فضلا عن أنها قلما تستسيـــــغ استقلاله عنها وارتبـــاطه بزوجه (بعكس ما يحدث فى البـــلاد الأجنبية) ·

www.ibtesama.com/vb

وقد تمتد عملية « التكيف الزوجى » الى مجالات أخرى غير المجال الجنسى أو العشقى ، والمجال المادى أو الاقتصادى ، والمجال الاسرى أو الاجتماعى ، فيشعر كل من الزوجين بضرورة العمل على تحقيق ضرب من « التوافق » بينهما فى المجال الدينى أيضا · وتظهر هـذه الحاجة بصفة خاصة حينما يكون ثمة اختلاف جوهرى فى الدين أو العقيد بين الطرفين ، كأن يكون الزوج مسلما والزوجة مسيحية ، أو كأن يكون هـو بروتستانتيا وهى كاثوليكية · وليس من شك فى أن الفروق الدينية حينما تقترن بضرب من التعصب الاعمى من جانب أحـد الطرفين ، فانها قـد تحدث أثـرا سيئا على السعادة الزوجية ، خصوصا حينما تنشـأ فيما بعد مشكلة التربية الدينية بالنسبة الى الابناء · وحتى حينما يكون لدى الزوجين شىء غير قليـل من « التسامح الدينى » ، فان اختلاف العقيدة لابد من أن يؤدى الى اختلاف وجهتى نظرهما حول بعض المسائل الاخلاقية والاجتماعية والفكرية ، اما بصورة ضمنية مقنعة ، أو بصورة صريحة واضحة ·

كذلك لابد من أن يتحقق بين الزوجين ضرب من « التكيف » بخصوص أسلوبهما فى تمضـية أوقـات الفراغ : فان الزوج الذى يعود من عمله متعبا قـد

www.ibtesama.com/vb

يبغى قضاء السهرة في البيت ملتمسا فى صحبة زوجة الراحة والهدوء ، بينما قد تشعر الزوجة بضرب من السـأم بعد مكوثها فى المنزل طيلة النهـار فتبغى الخروج مع زوجها لقضاء السهرة فى مسرح أو سينما أو ما الى ذلك · ولا ريب أن الحيـاة الزوجية الصحيحة هى تلك التى يقضى فيها الزوجان أوقات فراغهما معا ، فلا بد للطرفين فى مسـتهل حياتهما من أن يعملا على تنظيم أوقات الفراغ بحيث تتفق مع حاجة الزوج الى الراحة والهدوء وحاجة الزوجة الى التغيير والتنويع · وأما حينما يهمل الرجل زوجته ، واضعا نصب عينيه التفريج عن نفسـه فقط ، فان الزوجة سرعان مـا تلتمس التسلية فى صحبة صديقات السوء ، أو هى قد تكبت سأمها فى حنق وألم ومرارة · ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن الانسجام بين الزوجين كثيرا ما يتولد عن المشاركة المستمرة ، ومثـل هـذه المشاركة لابد من أن تشمل أوقات الفراغ وألعاب التسلية والرحلات المنتظمة والنزهات الخلوية ·· الخ ·

١٠ ـ ولكن المهم فى كل هـذه المظاهر المختلفة للتكيف الزوجى هـو الوقت الذى نستغرقه عمليـة « التكيف » نفسها · وقـد حاول أحـد الباحثين الامريكيين (بالاشتراك مع زوجتـه) أن يجمع بعض

www.ibtesama.com/vb

المعلومات الدقيقة عن المـــدد التى تستغرقها عمليات التكيف لـدى الاسر المتزوجة (منذ أكثر من عشرين عاما) فقـــام بسؤال كل من الزوج والزوجـــة على حـــدة عن المـــدة التى استلزمها التكيف بينها وبين زوجها أو بينه وبين زوجته فى المجالا ت الآتية : (١) العلاقات الجنسية • (٢) انفاق الدخل • (٣) التوافق مع أسرة الزوج أو الزوجـــة • (٤) مكانة الدين فى الاسرة • (٥) اختيار الاصـــدقاء والتردد عليهم • (٦) تمضية أوقات الفراغ ومظاهر النشاط الاجتماعى المختلفة • وقد تبين لهـــذا الباحث بعد سؤال حوالى ٤٠٩ أسر أنه ليس ثمة اتفاق بين الزوجين حول الزمن الذى استلزمته عملية التكيف ، كما أنه ليس ثمة اجماع بينهما على أن التوافق قد تم أو لم يتم • وعلى الرغم من أن نصف المشتركين فى الاجابة على هـــذا الاستخبار قد قالوا بأن علاقاتهم الجنسية كانت مرضية منـــذ البدء ، فانهم قـد أجمعوا على القول بأن التكيف الجنسى هو من بين جميع عمليات التكيف أكثرها حـــاجة الى الزمن • وقد اختلف حوالى ٤٧٪ من الازواج والزوجات حول المدة التى اقتضاها هـــذا التكيف ، بينما قال البعض الآخر منهم بأن هـــذا التكيف قد استلزم مدة تتراوح بين شهر واحد وعشرين سنة ، أو انه لم يحدث

www.ibtesama.com/vb

على الاطلاق • وأما فيما يتعلق بالناحية المالية ، فقد قال حوالى ٥٦٪ من الأزواج والزوجات بأن الاتفاق على وجوه الانفاق قد تم فيما بينهم منذ اللحظة الاولى• كذلك قال المشتركون فى الاستخبار بنسبة ٧٥٪ ان التفاهم قد تم بينهم منذ البداية حول مسائل الدين والصداقات المشتركة • وأما بخصوص تمضية أوقات الفراغ والصلات القائمة بين كل طرف وأسرة الطرف الآخر فقد قال ٦٦٪ من الازواج والزوجات ان التفاهم قد تم بشأنها منذ مستهل حياتهم الزوجية (١) • أما النتيجة التى يخلص اليها هذا الباحث فهى أن السعادة الزوجية تتناسب تناسبا عكسيا مع طول المدة اللازمة لتحقيق التكيف المرضى ، وتلك حقيقة جوهرية سبق لنا تقريرها عند حديثنا عن العلاقة الوثيقة القائمة بين « التكيف » و « عامل الزمن » •

وليس « التكيف » مجرد عملية سيكولوجية تقترن بنضج الشخصية واكتمالها ، وانما هو أيضا ظاهرة سوية تستلزمها طبيعة الحياة الانسانية التى لا تكف عن النمو والتطور • والواقع أن الفرد ـ حتى بعد

---

(١) Cf. J. T. Landis & Mary G. Landis : "Building A Successful Marriage", New York, Prentice-Hall Inc., 1948. PP. 242 — 247.

www.ibtesama.com/vb

الزواج ـ لا زال فى مرحلة الترقى والنمو ، وهو على الرغم من كونه ناضجا أو راشدا ، فانه يجد نفسه مضطرا باستمرار الى أن « يتكيف » مع العالم الخارجى الذى تتسع رقعته أمامه ، والذى يجلب له عددا غير قليل من المشاكل الجديدة • والخطر الذى يتهدده فى خلال مراحل نضجه انما هو خطر الارتداد أو التقهقر ، أعنى احتمال الرجوع الى حياة الطفولة أو العودة الى مراحل سبق له اجتيازها • وهذا هو السبب فى أن للذكريات القديمة والتجارب السابقة أهمية كبرى فى حياة الفرد ، حتى بعد الزواج • وفى مثل هذه الاحوال كثيرا ما يكون التحليل النفسى أداة نافعة مفيدة لانه يعيننا على أن نعود الى تلك المراحل السابقة أو المواقف القديمة التى مر بها الفرد ، فيسمح لنا بأن نفهم تلك التجارب فهما عميقا ، وأن نقف على دلالتها الحالية بالنسبة اليه • وكثيرا ما تكون السنوات الاولى من الحياة الزوجية مسرحا تتردد فيه أصداء العلاقات الاجتماعية القديمة للفرد فى كنف أسرته : أعنى علاقاته بأمه وأبيه واخوته وأخواته •• الخ • ولا نرانا فى حاجة الى القول ـ بعد كل ما تقدم ـ بأن ما يتطلبه الزواج أولا وقبل كل شىء ، انما هو القدرة على النظر الى الحياة

www.ibtesama.com/vb

بمنظار الشريك الآخر ، والرغبة الصادقة فى فهم هذا الشريك ، ووضع النفس موضعه • واذا تحققت هـذه العملية من جانب كل طرف من الطرفين ، فان هـذا التحقق لابد من أن يستتبعه حدوث « التكيف » بطريقة تدريجية ، فيكتمل « التوافق » بـين وجهتى النظر المذكرة والمؤنثة الى الحياة •

وما دامت المشكلة الجوهرية التى يصطدم بهـا الزوجان فى مستهل حياتهما الزوجية انما هى ضرورة اهتمام كل منهما بالآخر على نحو ما يهتم بنفسه ، فانه لابد لكل منهما من أن يعمل جاهدا فى سبيل التخلص من تلك « النرجسية » المتطرفة التى توجد لدى كـل منـا فى السنوات الأولى من طفولته • والخطر هنـا انما يتمثل على الخصوص فى أن هـذه « النرجسية » قد لا تتراجع وتختفى ، وانما هى قد تستمر وتتزايد شـدة لدى أحد الطرفين أو لديهما معـا ، فيصبح الشخصان أكثر نرجسية ـ متحدين ـ مما كانا عليه من قبـل منفصلين ! ومن هنـا فان الصلة وثيقة بـين « الارتداد » أو « النكوص » ، وبين « النرجسية » أو « العشق الذاتى » ، لأن التقهقر الذى نتحدث عنه هنا انما يعنى العودة الى مرحلة سابقة من حيـاة الفرد ألا وهى مرحلة « النرجسية » (Narcissism) • ونحن نعرف كيف أن حياة الطفل تتصف بنوع من « التثبيت » حول ذاتها وحول الآخرين بقدر ما يشبعون حاجاتها •

www.ibtesama.com/vb

ولـكن الطفل حينما يشرع فى حب الآخرين لذاتهم ، وحينما يتعلم كيف يقدم لهم يـد العون والمساعدة ، فانـه عندئذ يكون قـد شرع بالفعل فى التحرر من « النرجسـية » • واذا كان من المحتمل بالنسبة الى الاشخاص المتزوجين أن تتجه ميولهم النرجسـية نحو الاحترام المتبادل وتقـدير كل طرف منهما للآخر ، فان من المحتمل أيضـا أن تتعرض تلك الميول لخطر « التثبيت » (Fixation) ، فتنحصر « النرجسية » فى علاقتهما المزدوجة ، وتتحدد فى تلك الدائرة الصغيرة المغلقة (١) •

وصفوة القول أن « التكيف الزوجى » عمليـة سيكولوجية لابد من أن تتم فى مستهل الحياة الزوجية، والا فان الاسرة لابد من أن تتعرض فى المستقبل لخطر الانحلال أو الانهيـار • واذا كان من نافلة القول أن نقرر أهميـة عامل « الزمن » فى تحقق عمليـات « التكيف » ، فانه لمن الاهمية بمكان أن تتتبع فيمـا يلى عمليات « الصراع العائلى » حتى تقف على « الانماط السلوكية » التى تنشـأ فى صميم الاسرة ، والتى قد تعمل على استمرارها أو انحلالها •

---

(١) Cf. W. Brown : "Psychological Methods of Healing", University of London Press ; 1938, PP. 159 - - 160.

www.ibtesama.com/vb

الفصل الثالث

الزواج السعيد

١١ ـ تحدثنا فى الفصل السابق عن عمليات « التكيف » التى تتم بين الزوجين فى مستهل حياتهما الزوجية ، ونريد الآن أن نستعرض عوامل النجاح فى الحياة الزوجية على ضوء ما توصلنا اليه من معلومات عن مبادىء التوافق الزوجى • ولا بد لنا من أن نلاحظ بادىء ذى بدء أن أساليب التعامل التى تنشأ فى صميم الاسرة منذ مستهل الحياة الزوجية هى بمثابة العوامل الحاسمة التى تعمل على بقاء الاسرة أو انحلالها • وهذه الاساليب ـ كما نعرف ـ قد تتخذ طابع التعاون والتآزر والتماسك ، أو طابع التشاحن والتنازع والتصارع • وكثيرا ما تقترن الحياة الزوجية فى أيامها الاولى بالكثير من ضروب « الصراع (Conflict) فيكون كل من الزوج والزوجة فى حالة تحفز مستمر ، ومواجهة حقيقية ، وكأن كل طرف يحرص منذ البداية على أن يحدد موقفه بازاء الآخر قبل فوات الأوان ! ولكن ضروب الصراع الزوجى لا تقتصر على بداية الحياة الزوجية ، بل هى قد تصبح ظاهرة عادية فى

www.ibtesama.com/vb

أساليب التعامل بين الزوجين ، فضلا عن آنها قد تظهر بصور عديدة تختلف شدة وضعفا • وقد يكون الصراع حادا عنيفا يظهر فجأة ثم لا يلبث أن يختفى ، أو قد يكون ظاهرة مزمنة مألوفة تكاد تقترن بكل أساليب التعامل فيما بين الزوجين • وهو قد يتخذ طابعا خفيا مستترا يحرص كل من الزوجين على كتمانه ، أو هو قد يصبح ظاهرة علنية مكشوفة تجرى تحت سمع الناس وبصرهم ! ولا نرانا فى حاجة الى استقراء أسباب هذا الصراع ، فاننا نعلم أنه يشمل فى العادة معظم أوجه التعامل بين الزوجين مما سبق لنا الحديث عنه خلال دراستنا لمظاهر التكيف الزوجى • وليس من النادر أن يبدأ الخلاف بين الزوجين حول مسألة جزئية كاسراف الزوجة أو تقتير الزوج ، لكى لا يلبث أن يمتد الى الصلات القائمة بين الاسرتين المتصاهرتين ، واختلاف المركز الاجتماعى لكل من الزوج والزوجة ، وتباين المزاج والمشرب لدى كل منهما ، وتفاوت سن الزوج عن سن الزوجة ، واختلاف شدة الحافز الجنسى عند الواحد منهما عنه لدى الآخر •• الخ ،

وقد لوحظ أن طبيعة « الصراع الزوجى » تختلف بحسب تربية الزوجين : فهى قد تتخذ صورة عبارات

www.ibtesama.com/vb

تهكمية تحمل أكثر من معنى ، أو هى قد تعنف فتتخذ صورة نزاع حاد لا يخلو من سباب وتطاول لفظى ، أو هى قـد تشتد حدة فتصل الى درجة التضارب والاشتباك بالايدى • ولا ريب أن نوع هـذا الصراع يتوقف الى حـد ما على الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها كل من الزوجين • ولـكن المهم فى عملية «الصراع الزوجى» هـو النتيجة التى تفضى اليها ، والدلالة السيكولوجية التى تنطوى عليها : فقـد يكون الصراع بمثابة تعبير عن عملية « مواجهة » تتحقق من خلالها أسباب «التكيف»، أو قد يكون وسيلة « عنيفة » للتفاهم يعقبها الصـلح والتوافق ، أو قـد يكون معول هدم يؤدى ان عاجلا أو آجلا الى انحلال الاسرة ، سـواء باتفاق الزوجين على الانفصال أو الطلاق ، أم بالتجـاء كـل منهما (أو أحدهما) الى سياسة الاهمال وعدم الاكتراث أو سلوك الخيانة وعدم الوفاء •

أما اذا أريد للصراع ألا يكون أداة انحلال ، بـل وسيلة فعـالة تؤدى الى التوافق ، فانه لمن الضرورى عندئذ ألا يدع الزوجان أسباب الشقاق تتسع بينهمـا حتى لتكاد تشمل كل مظاهر التعامل الزوجى • ومعنى هـذا انه اذا كان ثمة اختلاف بين الطرفين ، فان من واجبهما العمل على حصر هذا النزاع فى دائرة محدودة،

www.ibtesama.com/vb

حتى لا تستشرى أسباب الخلاف بينهما • ولابد فى مثل هـــذه الاحوال من العمل على الوصول الى اتخاذ بعض تصميمات مشتركة سريعة • ومثــل هـذا « التوافق » لا يمكن أن يتم الا اذا فطن الزوجان الى ضرورة التخلى عن بعض الاحلام الرومانتيكية الشعرية ، والنظرات الخيالية المثالية ، حتى يواجها الموقف على حقيقته ، بأن يعملا على تكوين عادات ســـلوكية مشتركة ، ومواقف وجدانية متفقة • ولا تصبح ضروب الصراع هدامة حقـــا الا اذا اشتدت سطوتها ، وازدادت قوتهـــا ، فأصبح لهـا طابع الدوام والاستمرار • والواقع أن المشاحنات اليومية اذا أصبحت « مزمنة » (Chronic) فانهـــا تفرض على الاسرة جـــوا قاتما من « التوتر النفسى » ، لـكى لا يلبث هـذا التوتر أن يصبح هـو الاسلوب السائد فى تعامل الزوجين أحدهما مع الآخر • وهكذا تستشرى أسباب الداء ، فيصبح كل تصرف يقوم به أحد الطرفين مدعاة للمؤاخذة من جـــانب الآخر ، ويصبح الجو العائلى عاصفا يزخر بأعاصير الشـــقاق والتشاحن • وهـذا ما يحدث لدى الاشخاص العصابيين (Neurotic) على الخصوص ، لأن الشخص العصابى هو فى العادة أقـــل الناس صلاحية للزواج وأكثرهم تعرضا لأزمات الصراع الزوجى • وليس السبب فى

www.ibtesama.com/vb

ذلك براجع الى أن الشخص العصابى لا يتمتع باى قسط من النضج النفسى فحسب ، وانما هو يرجع أيضـــا الى أن مثل هــذا الشخص لا يملك من « البصيرة (insight) ما يستطيع معه أن يفهم ضرورة « التبادل » وأهميــة « الاخذ والعطاء » فى صميم الحياة الزوجية • وربما كانت الخطورة الكبرى فى التعامل مع شخص عصابى انما تنحصر فى جهله بالمسئولية ، وفقدانه لكل ثقة فى نفسه ، فضلا عن اعتقاده الخاطىء بأن فى بذل الذات للآخر انتقاصا من قدره (١) •

١٢ ـ لقد أردنا عن قصد (فى الفقرة السابقة) أن نبدأ بالحديث عن عمليات « الصراع الزوجى » ، توطئة للحديث فيما بعد عن عوامل الانسجام أو التوافق بين الزوجين • وحجتنا فى تقديم الفشــل على النجاح هى أن معرفتنا بأسباب الفشل كثيرا ما تعيننا على احراز النجاح ، كما أن الالمام بعمليات التكيف مع ما يقترن بها من مواجهة وصراع هى الكفيلة بأن تقودنا الى فهم حقيقة الزواج وسر السعادة الزوجية • وعلى الرغم من أن الحقيقة كثيرا ما تضع تحت أنظارنا نماذج أليمة لاسر شقية امتدت لديها أسباب النزاع من موضوعات تافهة الى مسائل خطيرة تمس كيان الاسرة وتزعزع

---

(١) Cf. K. Young : "Personality and Problems of Adjustment." 2d ed., 1952 P., 494

www.ibtesama.com/vb

أركان الحياة الزوجية ، فاننا لا نعدم نماذج أخرى لأسر سعيدة قد نمت لديها أواصر المحبة والتعاطف والمشاركة ، فلم يزدها مرور الايام سوى قوة على قوة. وان البعض ليزعم أن « قوى الحب » ذات كمية محددة أو طاقة محصورة منذ البداية ، وكأنما هى « مستودع » محدود السعة لابد من أن ينخفض مستواه فى حينه الى أن يجف تماما ، ولكن من واجبنا أن نصحح هذه النظرة الخاطئة الى الزواج فنقول بأن الصلة الزوجية القائمة على الحب والتعاطف لا تشبه بمستودع آسن راكد ، وانما هى أقرب ما تكون الى ينبوع فائض دائم التدفق . وكما أن الكراهية قد تنمو وتتزايد ، فان الحب أيضا قد يكبر ويترعرع . وآية ذلك أن الزوجين العاقلين اللذين يجتهدان فى التحرر من الخيالات الرومانتيكية والاحلام الكاذبة ، لكى يعملا على تحقيق « التكيف » فيما بينهما بطريقة تدريجية متواصلة ، لن يلبثا أن يجدا السبيل الى مواجهة حلو الحياة ومرها فى تساند وتآزر ، وتعاون متزايد مستمر . والواقع أن الشخصية الحكيمة التى تحسن النظر الى الامور ، حينما تجد نفسها أسيرة للغضب أو صريعة لاى انفعال حاد ، فانها لن تتردد فى أن تفحص أفكارها وحالاتها الوجدانية قبل أن تسارع الى لوم الطرف الآخر أو

www.ibtesama.com/vb

التثريب عليه • وليس من الصعب بطبيعة الحال أن يبادر الزوج الى اتهام زوجته كلما حلت بهما نكبة، أو أن تبادر الزوجة الى القاء اللوم على زوجها كلما واجه الاسرة موقف عسير ، ولكن مثل هذا المسلك لن يزيد الموقف سوى تعقيد فوق تعقيد ، بينما قد يكفى التعاون المشترك والتفاهم المتبادل لحل كل ما تعقد من مشكلات •

واذا كان من الحق أن شيئا لا يجمع بين الزوج وزوجته قدر ما تجمع بينهما المواجهة المشتركة لما فى الحياة من مصاعب ومواقف حرجة ، فان من الحق أيضا أنه قد يكون من مصلحة الاسرة فى بعض الاحيان ألا يفيض الطرف الواحد فى الحديث عن همومه ومتاعبه اللهم الا اذا كان يبغى من الطرف الآخر نصيحة مثمرة أو عونا ايجابيا • ومعنى هذا أنه يحسن بالزوج أحيانا أن يكتم عن شريكة حياته مظاهر قلقه وأسباب همه ، بدلا من أن يتخذ منها منفذا ينفس به عن همه ! وكثيرا ما يكون من عوامل تقوية الحب أن يعلم أحد الطرفين أن شريكه قد تحمل بعض المصاعب بشجاعة ، أو أنه قد اجتاز بعض المحن فى صبر • وحينما يعمل أحد الطرفين شيئا ايجابيا أو عملا جديا فى سبيل الاخذ بيد الطرف الآخر وقت

www.ibtesama.com/vb

الشدة ، فهنالك يكون الحب القائم بينهما قد اجتاز تجربة ناجحة لن يخرج منها الا منتصرا • وليس أثقل على الزوجة من زوج يضن عليها بالحديث حينما يكون لديه من الانباء ما تقر له عينها أو ما يرتاح اليه سمعها ، لكى يجود عليها بالمقال المسهب الغزير حينما يكون فى معرض الشكاة أو بصدد الحديث عن متاعبه وهمومه ! ولا شك أن القارىء يذكر ما سبق لنا قوله من أن على الزوجين أن يقضيا أوقات فراغهما وتسليتهما معا ، ولكن حبذا لو استطاع كل من الطرفين أن يقضى أوقات همه وانشغاله على حدة ! حقا ان الحياة الزوجية تعاون فى السراء والضراء (كما نقول عادة) ، ولكن لماذا لا يكون لدينا من القوة ما نستطيع معه أن نجنب شريك حياتنا هموما قد نكون أقدر على احتمالها منه ؟ ولماذا يصر بعض الأزواج على الافضاء بمشاكلهم الى زوجاتهم، وهم يعلمون حق العلم أن المرأة المسكينة قد تكون فى غنى عن تحمل مثل هذه المشاكل ، خصوصا وأنهم قد يكونون بالفعل فى السبيل الى ايجاد حل لها ، فى الوقت الذى تظل فيه المرأة قلقة حائرة لا تكتحل عيناها بنوم ؟ ! •

١٣ ـ أما اذا أردنا أن نبحث عن المظاهر الحقيقية

www.ibtesama.com/vb

« للسعادة الزوجية » ، فسنجد أن « السعادة » مقولة ذاتية تحتمل من المعـــانى ما لا ســبيل الى حصره • وكثيرا مـــا يكون الطرفان المتعاقدان « سعيدين » . بينما يكون زواجهما فى الحقيقة لا يكاد يمت بصـلة الى ما اصطلحنا على تسميته بالزواج • ولنضرب لذلك مثـلا فنقول ان بعض الزوجات اللائى اقترن بأزواج يكبرهن بما يزيد عن عشرين أو ثلاثين سنة • قـــد يتمتعن بسعادة لا شك فيها • ومثل هـــذه الزيجات كثيرا ما تكون موفقة حينما لا يكون للزوجة من هـدف سوى البحث عن الامن والطمأنينة والموئل الاكيد • ولكن الثابت فعلا أن الفتيات اللائى يقدمن على مثـل هـــذا الزواج هن فتيات شاذات لا تنشد الواحـــدة منهن « زوجا » تكون معه على قـدم المساواة ، بـــل « أبا » رمزيا (أو بديلا للاب) تجد لديه الغوث والعون• ومعنى هـــذا أن مثـل هـذا الزواج الذى قـد يبدو فى الظاهر زواجا سعيدا موفقا ه وفى الحقيقة « زواج زائف » لا يصدق عليه هـــذا الاسم ، على الرغم من أمارات السعادة « الذاتية » التى قد تبدو على كل من الطرفين • وأما ذلك الزواج العاصف الذى لا يخلو من مشاحنات ومظاهر صراع (بشرط ألا يمتـــد النزاع العائلى الى جوهر العلاقة الزوجية) فقد يكون زواجـا

www.ibtesama.com/vb

« حقيقيا » لا تقوى كل عوامل الفنـــاء على تحطيمه ! فما هو السر اذن فيما نسميه باسم « الزواج السعيد »؟

يبدو لنا أن « الزواج السعيد » هـو تلك العلاقة الاتحادية التى تنشأ بين شخصيتين ناضجتين متكاملتين، فتسمح لكل من الرجـــل والمرأة بأن يحقق أكبر قسط ممكن من « الرضا الشخصى » (Personal Satisfaction)

وقد قام بعض الباحثين النفسيين والاجتماعيين بعمـل بعض الاحصائيات فى أمريكا بقصد معرفة نسـبة النجاح فى الزواج ، فتوصل عدد كبير منهم الى أن ثلثى أو ثلاثة أرباع الاشخاص المشتركين فى هذه الاستخبارات يتمتعون بزواج سعيد ! ولكن يجب أن نلاحظ أن قيمة مثل هذه النتائج محدودة ، لأن النـــاس فى العادة ـ حتى حينما يكونون بصدد استخبار غفل من الاسـم ـ يأبون أن يعترفوا بفشلهم فى الزوا ج، وبالتالى فانهم يميلون الى الظن بأنهم موفقون أو سعداء فى زواجهم ! وأما اذا رجعنا الى التقارير التى يقدمها الاطبـــاء والمحللون النفسيون (وهى فى العادة أكثر عمقـــا وأبعد مدى) فاننا نجد أن عـــدد السعداء من الأزواج والزوجات لا يكاد يعدو ٤٥٪ أو ٥٠٪ على الاكثر . والسر فى اختلاف نتائج هـــذه الاحصائيات انمـا يرجع الى أن ثقـة الشخص بالطبيب أو المحلل النفسى

www.ibtesama.com/vb

أكبر ، مما يعمل على توليد جو من الصراحة بينهما ، ومن ثم فان من الطبيعى أن تجىء التقارير الطبية والنفسية أصدق من الاحصائيات العادية ٠

وقد وجهت احدى الباحثات الامريكيات الى حوالى ٣٤٤ شخصا من الطبقة المثقفة عدة أسئلة عن « الزواج الموفق » أو « الاسرة الناجحة » ، فاستطاعت أن تجمع من خلال اجاباتهم حوالى ٢٢٠٨ شروط رأى المشتركون فى الاستخبار ضرورة توافرها فى الحياة الزوجية السعيدة ! ٠ وقد حاولت هذه الباحثة أن تصنف تلك الشروط فى مجموعات بحسب ترتيبها فى الاهمية ، فتوصلت الى حصرها فى عوامل أربعة : أولا : عوامل ترتبط بالسمات الشخصية والحالات الوجدانية والعلاقات المتبادلة بين أفراد الاسرة ، وتلك هى أهم العوامل ٠ ثانيا : عوامل ترتبط بالمركز الاقتصادى للاسرة ، وتشمل الدخل الكافى ، وحسن تدبير شئون المنزل ، ووجود نظام مالى للاسرة ٠ ثالثا : عوامل تتصل بالافكار العامة السائدة فى المنزل ، بما فى ذلك المثل العليا للزوجين ، ونظرتهما الى القيم الاخلاقية والدينية ٠ رابعا :عوامل اجتماعية تتصل

www.ibtesama.com/vb

بعملات الاسرة الخارجية ، وطريقتها فى تنظيم أوقات فراغها ، وأساليبها فى التسلية والراحة ٠٠ الخ ٠ ـ ثم عادت هذه الباحثة فوجهت الى المشتركين فى الاستخبار السؤال التالى : « ما هى التجارب المفيدة والاستعدادات القيمة التى أعانتك على تحقيق أسباب التكيف مع زوجك ؟ » ، فتلقت الردود التالية : أولا : قد يكون للخبرة فى مجالات أخرى أثر هام على الحياة الزوجية ، خصوصا اذا كان من شأن تلك الخبرة أن تمد ـ صاحبها بسعة الافق وبعد النظر ورحابة الصدر ٠ ثانيا : ليس من شك فى أثر التربية التى تلقاها المرء أثناء الطفولة على كل حياته الزوجية ٠ ثالثا : للدراسات السيكولوجية والالمام بمبادىء علم النفس ومعرفة طبيعة الطفل آثار واضحة على « السعادة فى البيت »٠ رابعا : لا بد لتحقيق التكيف من « المحاولة والخطأ » ٠ خامسا : من الاهمية بمكان أن يستفيد المرء من تجارب الآخرين ٠ سادسا : لا شك فى أن للاطلاع أثره على السعادة الزوجية ٠ وأما العوامل التى قد تحول دون سعادة الاسرة ، فقد استطاعت الباحثة المذكورة أن تحصرها فيما يلى : ـ ١ ـ العامل المالى أو الاقتصادى٠ ٢ ـ تدخل حماة الزوج فى شئون الاسرة ٠ ٣ ـ عدم توافر العون اللازم لادارة شئون البيت ورعاية الاطفال٠

www.ibtesama.com/vb

٤ ـ أسرة الزوج • ٥ ـ حدوث مرض أو عاهة لاحد الزوجين (١) •

وهناك بحث آخر قام به أحـــد علماء الاجتماع بقصد معرفة معايير التكيف الزوجى أو أسباب السعادة الزوجية ، فاستطاع بفضل هذه الدراسة الاجتماعيـة الدقيقة أن يقدم لنا النصائح التالية : أولا : لا بد من «تثبيت» (Fixation) الحب حـــول شخص الزوج (الزوجة) • ثانيا : على الزوجين أن يعملا على تنمية الاساليب الصحيحة فى التعامـــل والتآزر والتوافق ، مع الحرص على تجنب أسباب الاحتكاك ومناسبات الخلاف الشخصى • ثالثا : من الاهمية بمكان أن ينهض الزوجان بأعمال مشتركة تضمن لهما وحـدة القصد وامتزاج الهدف ، مع الاهتمام فى الوقت نفســه بتكوين ذكريات مشتركة ، والعمـــل على دعم أواصر التماسك والتعاون فى كل مناسبة • رابعا : لابد للزوجين من أن يكفل الواحد منهما للآخر أقصى حـــد ممكن من الاشباع الجنسى والرضا الشخصى • خامسا : على الزوجين أن يجتهدا فى حـل مشاكلهما الاقتصادية حلا مرضيا • سادسا : لا بد من أن يدع كل طرف للطرف الآخـر

---

(١) Cf. C. Y. Wood House : "A Study of 250 Successful Families" ; in "Social Forces", VII 511 — 32, June 1930 (quoted by E. S. Bogardus : "Sociology", 1955, P. 89).

www.ibtesama.com/vb

أكبر قسط ممكن من الحرية فى التعبير عن نفسه والعمل على تنمية امكانياته الشخصية ، بشرط ألا يكون فى هذه الحرية أى تعارض مع الرابطة الزوجية والحياة الاسرية • ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يكون ثمة « توافق زوجى » بمعنى الكلمة ان لم يعترف كل طرف بشخصية الطرف الآخر اعترافا كاملا (١) •

١٤ ـ أما اذا أردنا أن نقف على أسباب السعادة الزوجية أو الشقاء الزوجى ، على نحو ما استطاع أن يحددها بعض الباحثين الممتازين ، فسيكون علينا أن نرجع الى ثلاث دراسات هامة قام بها على التعاقب ترمان (Terman) فى بحث قيم له تحت عنوان : « العوامل السيكولوجية فى السعادة الزوجية » ظهر سنة ١٩٣٨ ، وبرجس (Burgess) بالاشتراك مع كترل (Cottrell) فى بحث دقيق أطلقا عليه اسم « التنبؤ بالنجاح أو الفشل فى الزواج » ظهر سنة ١٩٣٩ ، وأخيرا (Locke) فى دراسة ممتازة قام بها سنة ١٩٥١ تحت عنوان « التنبؤ بالتوافق (أو التكيف) فى الزواج » • والفارق بين هذه الدراسات الثلاث وبين ما سبق لنا الحديث عنه من بحوث ، هو أننا هنا بصدد استخبارات سيكولوجية دقيقة ، واحصاءات علمية

---

(١) Willard Waller : "The family ; A dynamic Interpretation." ; Pryden Press, N — Y, 1938, PP. 434 — 436.

www.ibtesama.com/vb

وافية ، مما يزيد من قيمة النتائج التى توصل اليها أصحاب هذه الدراسات فى ميدان «علم النفس العائلى» وسنتعرض بايجاز لدراسة هذه النتائج ، مع التنبيه مقدما الى أنها قد لا تنطبق الا على البيئة الامريكية التى أجريت فيها هذه البحوث · ـ

وقد أجرى الباحث الأول ـ ألا وهو ترمان ـ دراسته السيكولوجية على ٧٩٢ أسرة أمريكية من الطبقة المتوسطة فى ولاية كاليفورنيا ، فاستطاع أن يخلص الى أن هناك ثلاثة عوامل رئيسية تحدد السعادة الزوجية هى : أولا : عامل الشخصية · ثانيا : عامل الاطار الاسرى · ثالثا : العامل الجنسى · والملاحظ فيما يتعلق بالعامل الاول أن الاشخاص الاشقياء فى زواجهم هم فى العادة الاشخاص العصابيون (Neurotic) أو الاشخاص الذين يتصفون بسرعة الغضب ، والميل الى انتقاد الآخرين ، وعدم مراعاة شعور الغير ، والتأثر الشديد بالمدح أو الذم ، وانعدام الثقة بالنفس ، والتسرع فى اظهار أمارات الحب أو الكراهية ، والميل الى السيطرة على الجنس الآخر ، والتذبذب الشديد من حالة الى أخرى ، وكثرة الانشغال بالافكار التافهة ، وعدم الاهتمام بمسائل الدين والآداب العامة والمبادىء الاخلاقية المرتبطة بالامور الجنسية · ولعل أهم صفات الازواج السعداء (فى نظر ترمان) هى من هذه

www.ibtesama.com/vb

الناحية القدرة على ضبط النفس ، والميل الى التعاون والمزاج المعتدل ، وعدم الانسياق الى اليأس أو فقدان الثقة بالنفس • وأما أهم صفات الزوجات السعيدات فهى روح الصداقة والمودة ، والقدرة على ضبط النفس والتحكم فى الانفعالات ، والميل الى الحركة والنشاط • وليس أشقى فى الحياة الزوجية من المرأة ذات الحساسية الزئبقية التى سرعان ما تتوهم أنها ضحية ، والتى تستسلم لليأس والسأم والتراخى المستمر • ـ وأما فيما يتعلق بالعامل الثانى ـ ألا وهو عامل الاطار الاسرى ـ فقد وجد ترمان أن أكثر العوامل الملائمة لنجاح الزواج هى سعادة الابوين ، وسعادة الزوج أو الزوجة ابان الطفولة ، وانعدام الصراع بين الطفل وأمه أو أبيه ، ووجود نظام عائلى محكم (ولكن ليس صارما) فى البيت ، وتوافر الرابطة القوية بين الام والاب ، وصراحة الابوين فيما يتعلق بمسائل الجنس ، وانعدام النفور أو التقزز من المسائل الجنسية فى السنوات السابقة على الزواج • وأما فيما يتعلق بالعامل الثالث ـ ألا وهو عامل الصلات الجنسية ـ فان ترمان يقرر أنه ليس ثمة علاقة مباشرة بين السعادة الزوجية وبين استعمال موانع الحمل ، أو خوف الزوجة من الحمل ، أو مدة

www.ibtesama.com/vb

الجماع ، أو تاريخ الزوجة الجنسى قبل الزواج ٠٠ الخ ولكن ثمة علاقة وثيقة بين سعادة الزوجة ودرجة متعتها الجنسية فى أول علاقة زوجية ، بينما توجد علاقة عكسية بين سعادة الزوج وميل زوجته الى الحياء البالغ ٠ وأما حينما يكون ثمة تعادل فى قوة الحافز الجنسى لدى الزوج والزوجة ، وحينما تكون درجة « الاشباع الجنسى » عند الزوجة ذات طابع مرضى ، فهنالك تكون السعادة الزوجية قد استكملت معظم أسبابها ٠ هذا مع العلم بأن ثلث الزوجات اللائى اشتركن فى استخبار ترمان قد اعترفن أنهن لم يعرفن الاشباع الجنسى الحقيقى ، أو لم يستطعن بلوغه الا نادرا (١) ٠

أما البحث الثانى الذى قام به العالمان الامريكيان برجس (Burgess) وكترل (Cottrell) فقد كان الغرض منه التوصل الى تحديد عناصر السلوك المؤدية الى النجاح أو الفشل فى الزواج على ضوء مجموعة من الاستخبارات الدقيقة التى أجريت على نحو ٥٢٦ زوجا وزوجة من الطبقة المتوسطة فى أمريكا ٠ وقد لخص الباحثان النتائج التى توصلا اليها فى الحقائق الست

---

(١) Cf. L. M. Terman : "Psychological Factors in Marital Happiness", New-York, Mc Graw-Hill Book Company, 1938.

www.ibtesama.com/vb

الآتية : ـ أولا : لا زالت الزوجـــة الامريكية (على العكس من الرأى الشائع) مضطرة الى تحقيق القسط الاكبر من التكيف ، وذلك لسيادة « النمط الابوى » فى سيطرة الذكر على الاسرة • ثانيا : ان العلاقات الوجدانية التى تربط الطفل بوالديه هى التى تحـدد بشكل واضح مستقبل حياته الغرامية ، وبالتالى فان سعادة الوالدين فى الحياة الزوجية مرتبطة كل الارتباط بسعادة الابناء من بعد • هـذا الى أن تعلق الطفـــل بأبويه ، وعلى الخصوص تعلق الولد بأمـــه ، وتعلق البنت بأبيها ، مع انعدام كل مظاهر الصراع مـــع الوالدين ، مما يرتبط ارتباطا وثيقا بدرجة تكيف الفرد فى حياته الزوجية المستقبلة • ثالثا : لا شك فى أن الروح الاجتماعية الموجودة لدى الفرد ، على نحو ما تتمثل فى مشاركته لحياة الجماعة ونهوضه ببعض أوجه النشاط الاجتماعى ، هى من الاهمية بمكان فى تحديد مدى نجاح الاسرة أو فشلها • ولهـــذا فان الشخص الاجتماعى الذى يتمتع بالكثير من الصلات ـ اذا تساوت باقى الظروف ـ هو فى العادة أقدر عـلى النجاح فى حياته الزوجية من الشخص المنعزل الـذى يعيش على هامش المجتمع دون الاهتمام بتكوين أيـــة روابط اجتماعية • رابعا : ليس للعامل الاقتصادى

www.ibtesama.com/vb

فى حد ذاته أثر كبير فى نجاح الاسرة أو فشـــلها ، وانما لا بد من أن تنضاف الى هـذا العامل عوامـل أخرى مساعدة حتى يصبح ذا أثر فعال فى حيـــاة الاسرة • خامسـا : يـــذهب معظـم المشتركـين فى هـــذا الاستخبار الى أن تكيفهم الجنسى لم يتولد عن عامل بيولوجى محض ، بقدر ما كان نتيجة لعوامـــل سيكولوجية واتجاهات ثقافية سابقة نحـو الجنس • سادسا : يقرر الباحثان بنـــاء على هـذا الاستخبار أن فى الوسع التنبؤ بنجاح الزواج أو فشله مقدما ، وأنه لا بد من العمل على التوسع فى هـــذا المضمار بالاستناد الى الاحصائيات العلمية ودراسـة الحـالات المختلفة (١) •

وقد سار لوك (H. J. Locke) على خطى هـــذين الباحثين ، فحاول أن يتوصل الى مجموعة من النتائج العامة التى تلخص كل قوانين التكيف الزوجى • وربما كان من المفيد أن نأتى على ذكرها بايجاز فيما يلى : ـ

---

(١) Cf. E. W. Burgess & L. S. Cottrell : "Predicting Success or Failiure in Marriage", New-York, Prentice-Hall, Inc., 1939, PP. 349 — 350.

www.ibtesama.com/vb

(١) السعادة فى الزواج مقترنة بالتكيف (Adjustment) وليس الطلاق الا بمثابة تعبير عن « انعدام التكيف » ٠

(٢) ليس « انفصال » الزوج عن الزوجة سوى تجمع بطىء لمجموعة من عمليات الصراع المتعاقبة أو المشاحنة المستمرة ٠

(٣) يتوقف « التكيف » على نمو أواصر المحبة والتعاطف ، وتزايد « الاهتمامات » المشتركة ، وتعدد مظاهر النشاط المزدوج ، واتخاذ مواقف متشابهة ، والايمان بقيم مشتركة ، واحترام كل فرد لشخصية الآخر ٠

(٤) يستلزم « التكيف » فى الزواج بالضرورة ضربا من التكيف مع أسرة الطرف الآخر ٠

(٥) لا بد للتكيف من أن يشمل الصلات الجنسية ، وهذه لا بد أن تقوم على التعاطف والاشباع المتبادل ٠

(٦) يقتضى « التكيف » من كلا الطرفين أن يتقبل عن طيب خاطر مسئوليات الزواج وتبعات الحياة « العائلية » ٠

(٧) يتوقف « التكيف » على قدرة كل من الطرفين على التبادل الوجدانى (أى تلقى عطف الآخر ، والاستجابة له) ٠

www.ibtesama.com/vb

(٨) يرتبط « التكيف » ارتباطا مباشرا بالروح الاجتماعية العامة وعدد الاصدقاء المشتركين (١) ٠

تلك هى النتائج التى توصل اليها هؤلاء الباحثون حول أسباب السعادة الزوجية ، وهى جميعا تؤكد أهمية التكيف الجنسى ، وتبين لنا الدور الذى تقوم به سعادة الطفولة فى ضمان السعادة الزوجية من بعد ، كما أنها تظهرنا على أن الزواج ليس مجرد علاقة بيولوجية تقوم بين رجل وامرأة ، وانما هو رابطة عميقة يستلزم فيها الاشباع الجنسى نفسه ضربا من التهيئة السيكولوجية ٠ وسنرى فيما يلى الى أى حد يمكن القول بأن الحياة الزوجية تقوم على الشعور بالمعية (Togetherness) ، وتستلزم العمل على تقوية أواصر ذلك الوجدان المشترك الذى نسميه بال « نحن » ٠

١٥ ـ ان البعض ليظن فى كثير من الاحيان أن « الزواج » هو الموئل الذى يمكن أن يلتجىء اليه شخص معذب قد رانت عليه الوحدة وأثقل كاهله السأم ، ولكن الزواج فى الحقيقة لم يكن يوما علاجا لما ينزل بالمرء من أعراض « عصابية » (Neurotic)

---

(١) H. J. Locke : "Predicting Adjustment in Marriage", Henry Holt, N. Y., 1951, Ch. XVe.

www.ibtesama.com/vb

وليس أدل على صحة ما نقول من أن الرجل «العصابى» الذى يقدم على الزواج ، سرعان ما يتحقق من أن الحياة الزوجية لم تزد مشكلاته الا تعقيدا على تعقيد ! والواقع أن هنـــاك أشخاصا لم يخلقوا للحياة الزوجية ، وهؤلاء لن يستطيعوا أن يتذوقوا عـــذوبة الحياة المشتركة ، لانهم لم يعرفوا يومامعنى الشعور «بالنحن "The "We وبالتالى فانهم لم يؤهلوا للحياة الزوجية التى تقوم على « الأخذ والعطاء » • ـ ومهمـــا كانت الصورة التى تتخذها الحياة الزوجية ، فانها لا بد من أن تنطوى على المشاركة والتبادل والشعور بالمعية •• ألا يحيا الزوجان معا ، ويتقاسمان فراشا واحدا ، ويشعر كل منهمـــا بأنه للآخر ؟ وماذا عسى أن يكون « الزواج » ، ان لم يكن فى صميمه تلك « الرابطة الحية » التى تجمع بين الرجل والمرأة ، فتمزج فى وحدة عجيبة كل أفكارهما ومشاعرهما وغاياتهما وشتى مظاهر حياتهما ؟ ـ • وربما كان أقوى رمز على هـــذا « الاتحاد » اضطجاع الزوج والزوجة فى فراش واحد : فان الفراش المشترك هو أعمق دلالة وأوضح صورة لهذا « الامتزاج » الكلى الذى تتطلبه الحياة الزوجية • وهـكذا يرقد الزوج الى جوار زوجته ، فتطويهما معا فى سكون الليـــل ولاشعور الرقاد ، وحدة عميقة تنفذ بهما الى أبعد أغوار

www.ibtesama.com/vb

الحياة المليئة الخصبة ! ومهما كان من أمر الرابطة التى تجمع بين الزوجين فى حياتهما اليومية ، فان فى وسعنا أن نقول ان الزوجين اللذين لا يتقاسمان فراشا واحدا هما فى الحقيقة ليسا بزوجين (١) !

والحق أن الحياة الزوجية الصحيحة انما تقوم على شعور كل من الطرفين بأنه « مع » الآخر ، وأن هـــذه « المعية » هى فى حـــد ذاتها كافية لتبرير كل وجودهما ! وليس بضرورى أن « يعمـــل » الزوجان شيئا مشتركا، فان مجرد « وجودهما معا » يحمل فى ذاته كل معانى الحياة الزوجية • ومعنى هـــذا أنه ليس فى الحيـاة الزوجية « سأم » بمعنى الكلمة ، اللهم الا اذا كانت أدواء الانحلال قد بدأت تدب من قبل فى أوصال تلك الرابطة المشتركة • وأما حينما تكون الرابطة الزوجية قائمـــة ، فان اضطجاع الزوج مع الزوجة ، حتى اذا لم يقترن بأى اتصال جنسى ، هو فى حـــد ذاته رابطـــة عميقة • ولعل هـــذا هو ما حـــدا ببعض علماء النفس الى القول بأن ما يكون جوهر الرباط الزوجى ليس هو الحب ، ولا هو الحافز الجنسى ، وانما هو هـــــذا

---

(١) Cf. O. Schwarz : "The Psychology of Sex". Ch. X : On Marriage PP. 224 — 228.

www.ibtesama.com/vb

الشعور القوى بالمعية (١) • هـــذا الى أن ثمة فارقا واضحا بين العلاقة التى تجمع بين الزوجين والعــلاقة التى تجمع بين العاشقين : فان العاشقين ليعيشان على هامش المجتمع فى شـــبه عزلة مزدوجة ، بينما يعترف الزوجان بهــذا العالم الخارجى الذى لابد لهما من أن يعيشا فيه • وليستالزوجة عقبة تحد منحرية الزوج، بـــل هى وسيط يربط بينه وبين العالم الخارجى • ولهذا فان الزوج الذى يظفر بتأييد زوجته وتقديرها سرعان ما يقبل على عمله بهمة ونشاط ، بينما هـــو قـــد يشعر بفراغ عميق فى حياته ، اذا لم يجد لدى زوجه التشجيع الكافى والثقة التامة • وقـد يحدث أحيانا أن تكون آمال الزوج واسعة وأحلامه عريضة ، فما تكاد الزوجة تقف على ما لامكانياته من حدود حتى تعمد الى المبالغة فى تصوير غروره واظهـــار جوانب ضعفه • وأما الزوجـــة العاقلة فانها تحاول أن تعين زوجها على الوصول الى الاهداف القريبة ، دون أن تلقى فى روعه بأن مراميه أبعد ما تكون عن قدراته ، أو أن مثله الأعلى أمر مستحيل ليس له عليه يدان !

والواقع أن العلاقة بين الزوج والزوجـــة ليست علاقة سيطرة من جانب وخضوع من جانب آخر ، وانما هى ـ كما سبق لنا القول ـ علاقة مشاركة واتحاد •

(١) المرجع السابق •

www.ibtesama.com/vb

وقد قام أحد الباحثين فى أمريكا بدراسة طوائف مختلفة من الاسر ، لمعرفة العلاقة بين السعادة الزوجية وسيطرة أحد الطرفين على الآخر ، فتوصل الى النتائج الآتية : أولا : فى الزيجات القائمة على سيطرة الرجل تبلغ نسبة السعداء ٦١٪ والاشقياء ٢٤٪ • ثانيا : فى الزيجات القائمة على سيطرة المرأة تبلغ نسبة السعداء ٤٧٪ والاشقياء ٣١٪ • ثالثا : فى الزيجات القائمة على المساواة بين الرجل والمرأة ، تبلغ نسبة السعداء ٨٧٪ والاشقياء ٧٪ • وهذه الاحصائيات ان دلت على شىء ، فانما تدل على أن الزواج الديموقراطى الذى يقوم على توزيع عادل للسلطة بين الرجل والمرأة هو من بين جميع ضروب الزواج (على الاقل فى أمريكا) أكثرها تحقيقا لشروط السعادة • وبينما يجىء الزواج القائم على سيطرة الرجل فى المرتبة الثانية من حيث درجة السعادة ، نجد أن الزواج القائم على سيطرة المرأة هو أقل أنواع الزواج تحقيقا للسعادة (١) • ولكن المرأة لم تعد تقبل فى مجتمعنا الحاضر أن تكون مجرد سلعة يشتريها الرجل أو

---

(١) Cf. P. Popense : "Can the Family Have Two Heads?" in "Sociology and Social Research", vol. XVIII; Sept. - Oct. 1933, 12 — 17.

www.ibtesama.com/vb

مجرد أداة يستخدمها فى اكتساب لـــذته ، وانما هى أصبحت ترغب فى أن تقاسمه السلطة ، وآن تشترك معه اشتراكا فعليا فى ادارة شئون الاسرة • وقـد تشعر الزوجة بأنها لزوجها ، ولكنها لن ترتضى لنفسها أن تكون « ملكا » له ! وهى قـد تريد ان تستشعر قـــوة زوجها وقيمته ، ولكنها لن تقبل أن يريدها زوجهـا كدليل على قوته ، بل لمـــا لها من قيمة فى ذاتهـــا • وليس ثمة زوجة ـ كائنة من كانت ـ ترتضى عن طيب خاطر أن تكون مجرد وسيلة يستعين بها زوجها لبلوغ متعته ، وانما تريد الزوجة أن تكون الشريكة التى يركن اليها الرجل ويحنو عليها ، فلا تجىء لذته الا مع لذتها ، ولا تتحقق سعادته الا بتحقق سعادتها • وقـد يقع فى ظن الزوج أحيانا أن « من حقه » أن يجـد السبيل الى زوجته وقتما شـــاء ، وأن من واجبهـــا نحوه أن تضمن له المتعة فى كل حين ، ولـــكن هـذا المسلك هو الكفيل بانصراف الزوجة عنـه ونفورها منه وكراهيتها للصلات الجنســـية نفسها • واذا كان بعض علماء الجنس قـد دأب على الحديث عن « فن الحب » فما ذلك الا لأن العلاقة الجنسية تقتضى الكثير من المران والخبرة واللباقة والدراية • وما أصـــدق بلزاك حينما يقول فى كتابه « فسيولوجية الزواج » :

www.ibtesama.com/vb

« انه لمن مصلحة الرجـــل نفسه ، بل هـــذا واجب تمليه عليه كرامته كرجل ، ألا يستبيح لنفســه تذوق متعة لم تكن لديه المهارة الكافية لان يجعل منها عنــد زوجه لذة مستحبة » ·

وليس من شك فى أن « الزواج السعيد » انما هــو تلك الصلة المتجددة التى لا يعرف الســأم طريقــه اليها · فليست الرابطة الجنسية وحـــدها هى التى تستلزم التنويع والتجديد ، وانما تقوم الحياة الزوجية بأسرها على « الوفاء الابداعى » (Fidélité Créatrice) الذى لا يكف عن خلق نفســـه بنفسه ! ومعنى هــذا أن الزوج السعيد يرى فى زوجه كل يـــوم « مخلوقا جديدا » ، وان كانت هى بعينها ذلك المخلوق الــذى أولع بحبه يوما ! وان مرور الايام ليزيد الشريكين ألفة واتحادا ، فما يرى فيه العاشقان ســأما ورتابة ، يرى فيه الزوجان تأكيدا لحبهما وتوثيقا للرابطة التى تجمع بينهما ·وهــكذا يبدو « الايقاع المتصل » الذى تسير عليه عجلة الحياة ، فى نظر الزوجين اللذين تقاسما حلو الحياة ومرها بمثابة تعبير عن تلك « الوحدة » الطويلة التى جمعت بينهما والتى لن تزيدها الايام الا صلابة على صلابة · ومن هـــا فان « الزواج الســـعيد » لا يعرف « مشكلة الوفاء » ، لأنه لا يفهم الحياة الزوجية

www.ibtesama.com/vb

على أنها حقوق وواجبات ، وانما هو يشعر منذ البداية بأن للزواج طابع الدوام والاستمرار • فليس « الوفاء » فى نظر الزوجين الحقيقيين بمثابة « فعل أخلاقى » ، بل هـو نسيج تلك الحياة المشتركة التى لا يمكن أن يتسرب اليها خصم أو منافس • وبينما يشعر العاشقان بأن حبهما معرض فى كل لحظة لخطر الانهيار ، وانه لابد لهما من « غيرة » واعية تضمن للواحـد منهما « وفاء » الآخر ، نجد أن الزوجـين الموفقـين يظهران من الاخلاص ما يدل على أن « الوفاء » عندهما « ولاء » للزواج نفسه باعتباره نظاما مقدسا •

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

الفصل الرابع

المجتمع « العائلى »

١٦ ـ ليس الزواج مجرد ظـــاهرة سيكولوجيـة تخص الفردين اللذين يرتضى كل منهما الآخر ، وانما هو أيضا ظاهرة اجتماعية تستلزم تصـــديق المجتمع وقبوله • واذا كانت معظم المجتمعات تجعل للـــدولة نصيبا فى الاعتراف بشرعية الزواج أو عدمها ، فذلك للتعبير عن هـــذا الطابع « الجمعى » الذى يتخـذه الزواج حينما يصبح « عقدا » بمعنى الكلمة • واذن فان اشهار الزواج يشير الى أنه لم يعد مجرد مســـألة فردية تخص شخصا أو شخصين ، وانما هو قد أصبح « نظاما اجتماعيا » • والواقع أنه لمـــا كان للزواج نتائج تعدو الزوجين ، وتمتد الى الابناء الذين هـــم ثمرة لهـذه الرابطة الزوجية ، فقد كان من الضرورى للمجتمعات أن تتدخل فى ارادة الافراد ، بقصد العمل على صيانة مستقبل الأبنـــاء وحمايتهم من الشرور الناجمة عن الاهمال أو التربية السيئة من جانب الآباء• ومن هنـا فقد اشترطت معظم الشرائع لحماية الاسرة أن يكون الزواج قائما على الثبـات والاستمرار ، لأن فى

www.ibtesama.com/vb

هـذا مصلحة الوالدين من جهة ، ومصلحة الابناء من جهة أخرى • ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن اتحـاد الزوجين لا يمكن أن يؤتى كل ثماره الا اذا نظر اليـه على أنه رباط أبدى لا انفصام له ، والا لكان فى استطاعة أى من الطرفين لأتفه الاسباب أن يرجع عنه فى أيـة لحظة • كذلك لابد للرابطة الزوجية من أن تـكون دائمة حتى يتسنى للوالدين أن ينهضا بتربية أبنائهما ، فان هذه لمهمة طويلة تستلزم تعاون الوالدين ، ولايمكن أن يجىء تأثيرها قويا الا اذا اقترن باتحـاد الابوين • وفضلا عن ذلك فانه لمن مصلحة المجتمع أيضا أن تكون الرابطة الزوجية متينة لا تنفصم عراها ، والا لاصبح « الاتحاد الحر » هـو الشرعة السائدة فى المجتمع نتيجة لتعميم الطلاق • ولا شك أن المجتمع الذى تعم فيـه الصلات الجنسية الحرة لابد من أن تتولد فيه أدوار اجتماعية خطيرة تؤدى فى النهاية الى الانهيار الخلقى • وهـذه الاسباب جميعا هى التى تجعل من «الاسرة» نظاما اجتماعيا تحرص كل المجتمعات على استبقائه •

ونحن حينما نتحدث عن « الاسرة » فاننا نعنى ذلك المجتمـع الصـغير الـذى يتألف من والـدين يتبادلان المحبة ويتقاسمان المسئولية ، ومن أبنـاء (طفل أو أكثر) يقوم الوالدان على تربيتهم بقصـد

www.ibtesama.com/vb

اعدادهم لمستقبل يضمن لهم أسباب المعيشة ماديا ونفسيا واجتماعيا • ولابد من أن ننبه الى أن لفظ « الزواج » لا يرادف لفظ « الاسرة » : فان « الطفل » ليس ضروريا فى كل حياة زوجية ، بل قد يكون « الزواج » غاية فى ذاته ، دون أن ينفى انعدام الاطفال عن مثل هذه الرابطة الزوجية صفتها الشرعية • ولكن « الاسرة » لا تكون مجتمعا عائليا بمعنى الكلمة الا اذا توافر الابناء الذين تتحقق من خلالهم رغبة الوالدين فى تجسيم الرابطة الروحية التى تجمع بينهما على صورة « مخلوق جديد » يوثق بينهما عرى الاتحاد • ومع ذلك فان الابناء وحدهم قد لا يكفون لحماية الرابطة الزوجية من خطر الانفصام ، حينما تكون أدواء الانحلال قد أخذت تدب فى أوصال الاسرة • بل كل ما هنالك أنهم قد يتسببون فى جعل الطلاق عسيرا ، ان لم يكن مستحيلا ! وعلى كل حال ، فان « الاسرة » فى مجتمعنا الراهن تقوم بوظائف أربع يمكن حصرها فيما يلى : (١) أنها تكفل للعلاقات الجنسية أكبر قيمة عاطفية ممكنة ، (٢) أنها تتعهد الاطفال بالتربية فى جو من التعاطف القائم على الحكمة والتعقل ، (٣) أنها تعد الفرد للحياة الجمعية القائمة على الاخذ والعطاء ، (٤) أنها تعد الطفل بطريقة لاشعورية لحياة زوجية

www.ibtesama.com/vb

مرضية فى المستقبل · ومعنى هـــذا أن الاسرة (كما قـــال أوجست كونت) ـ لا الفـــرد ـ هى الخليـة الاجتماعية الأولى أو الوحدة الجمعية الحقيقية · وعلى الرغم من أن « المجتمع الاسرى » فى أيامنا هذه قـــد أصبح هدفا للكثير من الحملات ، فضلا عن أنه قـــد تعرض لاخطار الانحلال فى بعض المجتمعات الاوروبية والامريكية ، فان « الاسرة » لا زالت هى المدرســة الاجتماعية الاولى (١) ·

بيد أننا لن نستطيع أن نفهم الدور الذى تقوم به « الاسرة » فى صميم الحياة الاجتماعية الا اذا وقفنا على نشـــأة هذا النظام الاجتماعى ، وصوره البدائية ، والتطورات المختلفة التى لحقته منذ أقدم العصور حتى يومنا هـــذا · وليس من شك فى أن مثـل هـــذه الدراسة الاجتماعية التى هى أدخل فى باب « عـــلم الاجتماع العائلى » منها فى باب علم النفس الاجتماعى ، هى مما لا يتسع المجال للخوض فيه باسهاب فى هـــذا الكتاب ، ولكننا نرى لزاما علينا مع ذلك أن نستعرض فى ايجاز تاريخ النظام الاسرى ، حتى نتبين كيف تطور

---

(١) Cf. Ed. S, aqir ; "What is the family still good for?" In "American Mercury.", 1930. XIX, pp. 145 - 151. (Quoted by K. Young : "Personality & Problems of Adjustment", p. 480.)

www.ibtesama.com/vb

هـــذا النظام من حيث الوظيفة والنطـــاق عـلى السواء (١) ٠

١٧ ــ وهنا نجد أن الآراء قد اختلفت حول الاصل الذى صدر عنه نظام الاسرة ، فظهرت فى هـــذا الصدد نظريتان رئيسيتان نطلق على الاولى منهما اسم «النظرية التطورية» (ومن أهم أنصارها مورجان) ونطلق على الثانية منهما اسم « النظرية الاجتماعية » (ومن أهم أنصـارها دور كايم) ٠ وسنحاول أن نلم بهـاتين النظريتين فى لمحـــة سريعة ، مع الاهتمام فى الوقت نفسه ببيان بعض أوجـــه النقد التى يمكن أن توجه الى كل منهما على حدة ٠

فاذا ما ألقينا نظرة على « المدرسـة التطورية » ، وجدنا أن الفكرة الرئيسية التى تقوم عليها كل نظرياتها هى أن الاشكال العليا للتفكير والحضارة ــ مثلها كمثل الاشكال العليا للكائنات الحية ــ قـد صـدرت بطريق التطور عن الاشكال الدنيا ٠ وتبعـــا لذلك فاننا اذا أردنا أن نعثر على الاصل الذى صدرت عنه البشرية ، فليس علينا سوى أن نصنف النماذج البشرية المختلفة أو النظم الاجتماعية المتعددة ، مستندين فى هـــذا

---

(١) ارجع الى كتاب « الأسرة والمجتمع » سنة ١٩٤٨ : للدكتور على عبد الواحد وافى ٠

www.ibtesama.com/vb

التصنيف الى درجة كل منها من الكمال ، وعندئذ سنجد أن أكثرها نقصا هو بالضرورة أقربها الى البدائية • فاذا ما طبقنا هـــذا المبدأ على « النظام العائلى » ، تبين لنا أنه لابد أن يكون الاجتماع البشرى قـــد بدأ باتخاذ صورة « فوضى جنسية » تشـــبه الى حـــد كبير الحالة التى يحيا عليها الحيوان • ثم لم يلبث الابنـــاء أن التفوا حول الام ، بينما بقى الاب مجهولا أو شـــبه مجهول ، فظهر « النظام الاموى » (نسـبة الى الام) (Matriarcat) • وتطور نظام الاسرة من جديد فظهر « النظام الابوى » (Patriarcat) (نسبة الى الاب) الذى فيه أصبح الرجل هو رأس الاسرة • وكان النظام الابوى فى البـــدء قائما على تعدد الزوجات ، ثم لـــم يلبث أن استحال فى عهد قريب الى نظـــام واحـــدى يقترن فيه الرجل بزوجة واحـــدة • ولـــكن الاسرة بعد أن وصلت الى نهاية الشوط فى مراحل تطورها ، لن تلبث أن تنحدر من جديد ، فيعود الاتصال الجنسى الحر الى الظهور ، بعد أن تكون الاسرة قد اجتازت مرحلة متوسطة (أو مرحلة انتقال) يتخذ فيها الطلاق صورة ظاهرة اجتماعية مشروعة (١) •

وقد حاول كارل ماركس أن يدخل هـــذه النظرية

---

(١) L. H. Morgan : " Ancient Society", 1877.

www.ibtesama.com/vb

فى ماديته التاريخية ، فذهب الى أن « الزواج الواحدى » (Monogamie) ليس الا « بناء فوقيا » (Superstructure) للاقتصاد الرأسمالى ، مستندا فى هـذا الرأى الى أن رغبة الوالدين فى توريث أبنائهم من بعدهم كل مـا يمتلكون هى التى اقتادت البشرية الى النظام الواحدى فى الزواج • ـ وقد دافع عن هـذه النظرية من بعد كل من انجلز فى كتابه « نشأة الاسرة ، والملكيـة الفردية ، والدولة » ، وبيبل (Bebel) فى كتابه : « المرأة والاشتراكية » (سنة ١٨٨٣) • وخلاصة هذه النظرة الاشتراكية الى الاسرة هى أنه بمجرد ما تزول الرأسمالية ، فان تكوين الاسرة لابـد من أن يخضع لتغير جوهرى • والسبب فى ذلك هو أنه حينما تتحول أدوات الانتاج الى الملكية المشتركة ، فان الاسرة الفردية لن تعود هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع • ومعنى هذا أن « الاقتصاد العائلى » سرعان ما يستحيل الى « اقتصاد اشتراكى » • وعندئذ ستصبح مهمة التربية اللازمـة للابناء عملاجمعيا تقوم به الدولة ، وسيكون على المجتمع أن يأخـذ على عاتقه رعـاية الاطفال جميعـا شرعيين كانوا أو غير شرعيين • « وهكذا لابد من أن يكتب على هم « الاعقاب » الزوال ، وهو ذلك الباعث الاجتماعى الجوهرى الذى لا زال حتى اليوم يحول بين الفتـاة وبين أن تهب نفسها فى غير ما تردد أو خوف لذلك

www.ibtesama.com/vb

الرجل الذى تحبه » (١) ٠

فاذا ما نظرنا الآن المبدأ التطورى الذى تقوم عليه هـــذه النظرية فى تفسير نشأة الاسرة ، وجدنا أنه لا يستند الى وقائع ثابتة ، بل يقوم على « مصادرة » أو مسلمة (Postulat) لا سند لها من الواقع ٠ وليس أدل على صـــحة مـــا نقول من أن البحـــوث الانثروبولوجية التى قام بها علماء الاجناس لم تجىء مؤيدة لهذا الغرض التطورى ٠ والواقع أن الافتراض القائل بأن « النظـــام الاسرى » قـــد مر بمرحلـة الفوضى الجنسية ، فمرحلة النظام الاموى ، ثـم مرحلة النظام الابوى ، هو مجرد فرض لا ينهض على صحته أى دليل ٠ وقد أثبت العالم الامريكى لوى (Lowie) أن حالة الفوضى الجنسية أو « الارتباط الحر » التى يتحدث عنها أصحاب النظرية التطورية هى حالة وهمية لا نجد لها نظيرا فى أى مجتمع من المجتمعات ، وانه ليس ثمة ما يثبت أن هـــذه الحالة قد وجدت فى أية مرحلة من مراحل تطور البشرية (٢) ٠ والظاهر أن الذى دفع القائلين بالتطور الى افتراض وجود مثـل

---

(١) Engels : "L'Origine de la Famille"; dans K. Marx. Engels, Lénine : "Sur la Famille ", p. 38.

(٢) Cf. Robert Lowie : "Traité de Sociologie Primitive", Trad. Franc., 1934. p. 66.

www.ibtesama.com/vb

هذه الحالة هو أنهم وجدوا فى « الزواج الواحدى » أعلى صورة من صور « النظام العائلى » ، فكان لابد لهم من أن يبحثوا عن أدنى صورة من صور الزواج حتى يجعلوا منها نقطة البدء فى هـــذا النظام الاجتماعى المعقد · ولكننا لو نظرنا الى أقوام الـ « بيجمى »"Pygmée" التى يعدها بعض علماء الانثرويولوجيا بمثابة النموذج البدائى للانسانية ، لوجدنا أن « النظام العائلى » السائد لديها يكاد يكون هو «النظام الواحدى» فى الزواج · هذا الى أن فى منهج التطوريين الاثنوجرافى (Éthnographique) خطـــأ منهجيا واضحا ، لأنهم يفترضون أن الشعوب البدائية الراهنة تمثل بالفعل الحالة التى كان عليهـا الانســـان البدائى ، ولكن هـــذه النظرة لا تخلـو من خطأ ، بدليل أن تقدم المدنية ليس ثابتا متواصلا وانما توجد لحظات تحول مفاجىء ، ولحظات توقف طويل الامد ، ولحظات نكوص وارتداد ·

١٨ ـ أمـــا اذا اتجهنا الى أصحاب « المدرســـة الاجتماعية » نسائلهم عن أصل « النظام العائلى » ، وجدنا أن دوركايم يقرر أن الاسرة لا تقوم على صلات الدم أو رابطة القرابة ، وانما هى تقوم على « وحـدة التوتم » ، أى على انتماء الافراد فى العشيرة أو البطن الى توتم واحد · و « التوتم » (Totem) كما نعرف

www.ibtesama.com/vb

هو عبارة عن صورة نباتية أو حيوانية ، أو مظهر من مظاهر الطبيعة ، تتخذ منه العشيرة رمزا لها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله (وكل ما يتصل به من أمور) منزلة التقديس (١) • وتبعا لذلك فان المجتمعات البدائية لم تعرف الفوضى الجنسية أو الزواج الجمعى ، وانما هى كانت تمارس منهج التطوريين الاتنوجرافى (Y'Exogamie) ، أى أن الرجل فيها كان مضطرا الى أن يتزوج من خارج عشيرته ، نظرا لان نظام التحريم كان يشمل كل نساء العشيرة ممن ينتسبن الى توتم عام واحد • وهكذا نجد أن أول صورة من صور الاجتماع العائلى ـ فى نظر دور كايم ـ هى « العشيرة التوتمية » التى تتركب من أفراد يظنون فى أنفسهم أنهم ينحدرون عن أصل واحد ترمز اليه وحدة التوتم • ثم لم يلبث « النظام الاموى » أن ظهر الى عالم الوجود ، فأصبحت « الام » هى الواسطة التى تنتقل عن طريقها الحقوق المختلفة الى الافراد ، وأصبح الطفل يتخذ توتم أمه مع كل ما يترتب عليه من حقوق • ولهذا فان علماء الاجتماع كثيرا ما يطلقون على هذا النظام العائلى اسم "Matronymat" ، وهو

---

(٢) الدكتور عبد الواحد وافى : (الأسرة والمجتمع) ، مصر ، سنة ١٩٤٨ ، ص ٧ •

www.ibtesama.com/vb

لفظ يعني ان الابن يرث عن أمــه لقبها ، فيصبح اسمه مقترنا باسمها · ثم تطور « النظام العائلى » بطريقة تدريجية الى أن بلغ مرحلة « النظام الابوى » التى فيها يتخذ الابناء لقب الأب ، أو على الاصح توتم الاب : "Patronymat" · وبعد أن كان « السلف » فى هذا النوع من الاسرة هو الرئيس والحاكم المسيطر ، أصبحت « الجماعة العائلية » أو « المجتمع الاسرى » قاصرا على الزوجين وأبنائهما ، وصار الاب هو عميد الاسرة وأما الآن فنحن بصدد الانتقال الى « الاسرة الزوجيــة » Famille Conjugale التى يتمتع فيها كل من الرجــل والمرأة بحقوق متساوية · وهكذا أصبحت المواريث (فى معظم البلاد الاوربية) تنتقل عن طريق النساء كما تنتقل عن طريق الرجال ، وصار من حق المــرأة المتزوجة (فى فرنسا مثلا) أن تمارس كل حقوقهــا المدنية ·· الخ ·

ولكن على الرغم من أن « التوتمية » منتشرة انتشارا واسعا على شتى الصور والاشكال ، فان نظرية دوركايم فى تفسير نشأة الاسرة لا تخلو من تعميم ومبالغة · والخطأ الذى وقع فيه زعيم المدرســة الاجتماعيــة الفرنسية هو أنه ظن أن العشيرة تستوعب الاسرة ، فى حين أن العشيرة لم تستطع يوما أن تستأصل الاسرة أو

www.ibtesama.com/vb

أن تحل محلها ، بل هي قد كانت في الحقيقـــة مجرد « وحدة » أخرى تزيد من تعقد الروابط الاجتماعية بزيادتها لصلات الفرد الواحد • وبينما نجد أن نظام العشيرة أو التوتمية لم يكن بمثابة نظام كلى ساد عند كافة الشعوب البدائية ، نلاحظ أن نظام الاسرة ـ على العكس من ذلك ـ قد توافر عند كافة هـــذه الشعوب • وأخيرا نستطيع أن نقول ان التوتمية ليست هي الصورة البدائية للاسرة ، بدليل أن أقوام البيجمى Pyggmées وقبائل الفوجيان (Fuégiens) (في جنوب أمريكا) والاسكيمو وغيرها ، قد عرفت كلها نظـــام الاسرة الواحدية القائمة على تساوى الحقوق وثباتها وهـكذا نخلص الى أن الاسرة (كما قال لوى (Lowie) هي « الوحدة الاجتماعية » الاولى ، لا في المجتمعات الحديثة فحسب ، وانما في المجتمعات البدائية أيضا (١) •

١٩ ـ والواقع أننا لا نعدم نظيرا لهذا « النظـــام العائلى » عند بعض الاجناس العليا للحيوان حيث نجد بعض الصور الاولية لنظام الاسرة البشرية ـ فليس من النادر أن نرى مجتمعا حيوانيا صغيرا يتألف من الام وأبنائها الذين تجمع بينهم رابطة التعاون ، بينما يقوم

---

(١) Cf. R. Lowie : "Traité de Sociologie Primitive", Trad. Franc., 1934, pp. 432 — 33.

www.ibtesama.com/vb

الذكر بدور الحارس الذى يحافظ على حيـــاة أنثـاه وصغاره ، وكأننا بازاء (مجتمع عائلى) يحقق فيه الذكر والانثى ضربا من تقسيم العمل ، ويظل فيه الرباط قائما بين الاثنين موسما بعد موسم ، حتى يفصل بينهما الموت! وقـــد أطلق البعض على هـــذه الصورة البدائية من صور « الاجتماع العائلى » اسم الترابط شبه ـ العائلى، أو « الاسرة شبه الانسانية » (Protohuman Family)

والحق أنه اذا كانت « الاسرة » قد وجدت منذ ملايين السنين ، ما دام العهد بها يرجع الى عهود غابرة ظهر فيها هـــذا النظام لدى بعض الحيوانات العليا ، فانه لابد من أن يكون لهذا النظام الاجتماعى دلالته وأهميته ولا شك أن نظاما نبع من صميم حاجات الفرد ، دون أن يكون قد فرض عليه فرضا ، لابد من أن يكون نظاما قويا متين البنيان • واذا كانت الطبيعة نفسها ـ حتى قبل تدخل اليد البشرية ـ قد عملت على ظهور « المجتمع العائلى » ، فانه لمن واجبنا أن ننظر الى هـــذا النظام نظرة جدية ، حتى يتسنى لنا أن نقف على السر فى بقاء هـــذا النظـــام الاجتماعى العجيب ، على الرغم من اختلاف الايام وتعاقب الأزمان • وقد رأينا فيما سبق كيف أن ثمة مجتمعات كانت الام والطفل فيها بمثابة الوحدتين الثابتتين فى « الجماعـة العائلية » ، نظرا لانشغال الاب بالتنقل فى ربوع بعيدة عن موطن الاسرة،

www.ibtesama.com/vb

أو لانهماكه فى حيـــاة الصيد والقنص ، مما جعـــل « الأم » مضطرة الى ملازمة أبنائها والتكفل برعايتهم والاستقرار معهم فى حياة عائلية منتظمة وهـــكذا كانت الام ـ لا الاب ـ فى هذه المجتمعات البدائية ، هى التى تقوم بادارة شئون الاسرة ، كما كانت الملكية تنتقل منها الى ابنائها . نظرا لانها كانت العضو الوحيد الثابت فى هـــذا النوع من « المجتمع العائلى » • وقد عرف هـــذا النظام الى حـد ما عند بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية ، كما ظهر أيضا لدى بعض الهنود الاروكوا (Iroquois) ، حيث كانت السلطة فى يد مجموعة من النساء كان ذكور العشـــائر يتخيرونهن للقيام بمهمة استشارية أو ادارية •

أما حيث كان نظام الرعى سائدا ، وحينما كان الناس يحيون على تربية الانعام والماشية ، فقـــد كان « الاب » فى العادة هو العامل الرئيسى فى حياة الاسرة• ولمـا كانت حياة الرعى تستلزم التنقل عبر مساحات شاسعة من الارض ، فقد بقيت الزوجة و (الام) بعيدة عن التأثير فى أبنائها أو السيطرة عليهم ، كمـــا بقيت تحت رحمة الرجل ، نظرا لحيـــاة العزلة التى كانت تحياها • وفى هـــذه الحياة القائمة على الرعى ، كان الرجال هم الذين يملكون القطعان والمواشى ، وبالتالى

www.ibtesama.com/vb

فقد كان « الرجل » هـو رأس الاسرة ، ما دامت ملكية الاسرة كانت مودعة بين يديه • أما الابناء فقد كانوا يلقبون بلقب الأب ويرثون عنه مباشرة ، ولو أن الابن الاكبر عادة كان هو الذى يخلف أباه فى رياسة « المجتمع العائلى » والقيام على ادارة شئونه • هـذا وقـد كانت الحروب سببا فى ازدياد سيطرة الرجال على النساء ، اذ كان الرجـــال يتخذون من النســـاء المسبيات فى الحروب رقيقات أو خليلات أو زوجات • وعلى الرغم من أن الرجل فى مثـل هـذا « الشكل الابوى » من أشكال الاسرة كان هو المسيطرة على كل شئون الاسرة ، فقد كانت المرأة أحيانا تمارس سلطة غير قليلة فى محيط الحياة العائلية ، اذ كانت الام هى المشرفة على شئون البيت (١) •

وربما كان أشهر « نظام أبوى » عرفه التاريخ فى حياة الاسرة هو نظام « الاسرة الابوية الكبيرة » على نحو ما نراه لدى قدماء العبريين • وحسبنا أن نرجع الى التوراة (أو العهـــد القديم) حتى نجد وصـــفا دقيقا لمثل هـــذه المجتمعات العائلية الكبيرة ، كأسرة ابراهيم أو اسحق أو يعقوب •• الخ • والذى يميز

---

(١) Cf. Emory S. Bogardus : "Sociology", Macmillan 1955, pp. 61 — 63.

www.ibtesama.com/vb

هـــذه الاسر جميعا هو أن الآباء فيهـا كانوا يعنون عناية فائقة بالابناء ، كما أن الابنـــاء كانوا يكنون لآبائهم كل احترام وتقدير · وقـد جاء فى الوصايا العشر التى حملها موسى الى بنى اسرائيل وصية هامة تقضى باحترام الوالدين : « اكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الارض » · (سفر الخروج ٢٠ : ١٢) · وهذا المبدأ الذى قدمته الاسرة العبرية للعالم قـــد عمل على توطيد دعائم « النظام العائلى » لانه أسبغ على الاسرة قسطا وافرا من الاتحاد والتماسك · والواقع أنه حيثما انعدم احترام الابناء لوالديهم ، فقد تزعزعت أركان ذلك المجتمع الكبير الذى ينتسب اليـه هؤلاء الافراد · وقد كان من نتائج توافر الاتحاد والوفاء فى الاسرة العبرية أن تمتع المجتمع العبرى بقدرة هائلة على التماسك والبقاء · ولولا تلك « الوحدة العائلية » لفنى ذلك المجتمع عن آخره ، ولمـا قامت له قائمة · ولـكن المهم أن قوة « المجتمع العائلى » فى هـــذا النظام الاجتماعى قد عملت على ظهور مبدأين عامين أخـــذت بهما الديانتان الاسرائيلية والمسيحية · والظاهر أن الدور الذى كان يقوم به عائل الاسرة أو شيخها الكبير هو الذى عمل على ظهور فكرة « أبوة الله » للنـــاس جميعا · وأما فكرة « أخوة » الناس بعضهم لبعض فقد

www.ibtesama.com/vb

كان ظهورها نتيجة لترقى « المسئولية الاجتماعية » فى الاسرة العبرية ٠

وليس من شك فى أن احترام الآباء هو الذى عمل على ظهور مبدأ « عبادة السلف » ٠ وهكذا انتشرت فى كثير من المجتمعات فكرة تقديس « السلف الصالح »، على اعتبار أن سعادة الاحياء تتوقف الى حد كبير على رضاء الموتى ٠ وأصبح من واجب كل رجل يبغى لنفسه السعادة أن يكون أسرة يعولها ويعمل من خلالها على أن تستمر صلة الاحفاد بالاجداد ٠ ولعل هذا هو ما حدا بالبعض الى القول بأن السر فى بقاء شعب الصين العتيد انما هو ثبات النظام العائلى عند الصينيين ، واستمرارهم على الاخذ بنظام تقديس السلف وعبادة الاجداد الصالحين (١) ٠

٢٠ ـ أما اذا نظرنا الى « الاسرة الرومانية » القديمة ، فى القرن السابع قبل الميلاد ، فاننا نجد أنها كانت تسير على النظام الابوى الكبير الذى فيه يرأس العائلة أقدم الذكور فيها ٠ وقد عمل على بقاء تلك الاسرة أنها كانت تقوم على الاساس الدينى الذى يقضى بعبادة السلف ٠ وهكذا كان المجتمع العائلى يقوم

(١) Cf. Emory S. Bogardus : "Sociology", Fourth edition, Macmillan, 1955, pp. 61 — 63.

www.ibtesama.com/vb

على مقربة من آلهة الآباء والاجداد ، وكان المسكن الذى تقيم به الاسرة أشبه بمعبد يشرف عليه رئيس الاسرة الذى كان يملك قوة اله حقيقى يسيطر على النساء والاطفال • وعلى الرغم من أن الاب المشرف على البيت كان يمثل قوة مطلقة تتحكم فى كل أفراد الاسرة فانه لم يكن يصدر فى أفعاله عن هوى وتعسف ، بل هو قد كان يعمل وفقا لما يعتقد أنه ارادة السلف • أما الملكية فقد كانت حقا مشروعا لاكبر الذكور فى الاسرة وكان التصرف فى هذه الملكية يتم بما فيه مصلحة المجتمع العائلى بأسره • ولم يكن من حق أقدم الذكور (أو رب الاسرة) فى العهود الرومانية القديمة أن يقوم بتحرير « وصية » • ولكن بمجرد وفاة رب الاسرة ، فقد كانت الملكية تنتقل بطريقة آلية الى أكبر الاحياء من الابناء • ولم يكن الطلاق معروفا فى ذلك الوقت ، بل كان الزواج عمليا غير قابل للانحلال • ويقال ان مدينة روما منذ تأسيسها حتى نهاية القرن الخامس من تاريخها لم تعرف طلاقا واحدا •ومعنى هذا أن المجتمع العائلى فى روما كان يتمتع بقسط كبير من الثبات والاستقرار • وعلى الرغم من أن نظام الاسرة كان أبويا صرفا ، فكانت النساء والاطفال تحت سيطرة رأس الاسرة (ألا وهو أكبر الذكور سنا) ، الا أن

www.ibtesama.com/vb

الاسرة قد بلغت من الرقى درجة لم تبلغها فى أى مجتمع قديم آخر ، اللهم الا المجتمع العبرى • والحق أن الاسرة الرومانية اذا قورنت بالاسرة العبرية فى أوج عظمتها فانها قـــد تبدو دونها بكثير •

بيد أن الحال لم يدم على هـــذا المنوال طويلا ، بـــل سرعان ما دارت الدائرة ، وسرعان ما أخـــذت عوامل الفناء تدب فى أوصـــال الاسرة الرومانية • وحينما بلغ هـــذا الانحلال أقصى مداه ، فان روما نفسها لم تلبث أن وقعت بين براثن الموت والفناء • وان البعض ليتساءل عما اذا كان ثمة صلة بين سقوط روما وانحلال مجتمعها العائلى ، ولكن ربما كان الاجدر بالسؤال أن نقول : هل كانت روما لتسقط ، لـو أن الحياة الاسرية فيها بقيت على ما كانت عليه من ثبـات واستقرار ؟ ـ • أما مظاهر « الانحلال العائلى » فى روما ، فقد اقترنت بالكثير من العوارض الهامه ، مما يدل على أن الظواهر الاجتماعية لا تسير فرادى • وأول هـــذه المظاهر أن الاسرة بدأت تفقد دلالتها الدينية ، فأصبح الناس ينظرون الى الزواج على أنه مجرد عقد مدنى ، وبالتالى فقد سرت بينهم موجة من الاستخفاف بالاسرة • ثم أخذت سـلطة الأب تضعف رويدا رويدا ، وأصبح من حقه بادىء ذى بدء أن يحرر وصية ، ثم

www.ibtesama.com/vb

لم يلبث هـــذا الحق أن اتسع فبعد أن كان فى وسع الاب أن يقسم تركته بين أبنائه ، أصبح من حقه أن يورث من يشاء • ولاشك أن تقسيم ملكية الاسرة الى وحدات صغيرة قد عمل من بعد على ضياع هيبة الاسرة باعتبارها نظاما اجتماعيا • وفضلا عن ذلك فقد أصبح من حق النساء أن يتمتعن بالملكية أسوة بالرجال ، ثم أصبح لهن حق الطلاق من أزواجهن فى القرن الثـانى قبـــل الميـــلاد • وهـــكذا استطاعت نســـاء الطبقـــات الاجتماعيـــة الكبرى أن يظفرن بالتحرر "Emancipation" ، وصـــار لهن مطلق الحرية فى أن يتصرفن كيفما شئن • ثم لم تلبث تلك الحرية الشخصية (لدى الكثير من الرجال والنســـاء) أن استحالت الى اباحية مطلقة ، فغلبت الحرية الشخصية على كل وازع أخلاقى أو رادع شخصى للحوافز الجنسية • وهـــكذا أصبح النـــاس يتزوجون بحرية وينفصلون بحرية ، وانتشرت بينهم بدعة الزواج المؤقت ، وصارت العلاقات الجنسية أمرا مشاعا لاضابط له ، وانتشرت الاباحية الجنسية بين الرجال والنساء على السواء ، وظهر نظام «الرفق» أو النكاح القائم على المتعة الجنسية فقط(١) •

(١) هذا النوع من النكاح قد عرف أيضا عند العرب فى الجاهلية • وقد دعا اليه فى أمريكا القاضى المشهور لندساى Ben B. Lindsay الذى أطلق عليه اسم «زواج المرافقة» (Companionate Marriage)

www.ibtesama.com/vb

أضف الى ذلك أن التغيرات التى طرأت على الاحـــوال الاقتصادية ، مثــل نشاط التجارة وظهور الصناعات واتساع المـــدن ، قد أدت الى هـــدم تلك الظروف الاجتماعية التى كانت الاسرة فيها هى وحدة المجتمع الاساسية • هــذا الى أن انحلال نظـــام الجزاءات الدينية للاسرة ، ونمو الحرية الفردية ، وانتشار العادات السيئة ، وشيوع الرذائل الجنسية ، قــد عمل بلاشك على تحول الاسرة من نظام اجتماعى متين البنيان الى مجرد اتفاق مؤقت بين شخصين بغية الحصول على متعة جنسية • وصفوة القول أن النظام العائلى فى روما قــد انتقل من أقصى اليمين الى أقصى الشمال : فبعد أن كانت الاسرة الرومانية خاضعة لســياسة القمع والصرامة ، أصبحت لا تعرف سوى الاباحية والمفاسد ، وبالتــالى فانها لم تلبث أن انتهت الى خاتمة أليمة من الانحلال ثم الفناء • ولا شك أن هذا الانتقال المفاجىء من دور السيطرة والتحكم الى دور الاباحية والتحرر هو الذى عمل على فناء الاسرة الرومانية ، نظرا لانها لم تبلغ مرحلة التكامل والاتزان ، ومن ثم فانها لم تنجح فى الوصول الى حل وسط بين القمع والاباحية •

٢١ ـ أما العامل الحاسم الذى ترك أثرا فعالا فى « المجتمع العائلى » بأسره ، فقد كان هو ظهور المسيحية •

www.ibtesama.com/vb

وما كادت المسيحية تجد السبيل الى بلاد الغرب حتى أخذت دعائم الاسرة تتوطد فى كافة أنحاء أوروبا • وقد انتشرت مبادىء الدين الجديد فى أوروبا فى الوقت الذى كانت روما فيه تعانى مرارة الانحلال ، وكانت الاسرة الرومانية فيه قد بلغت أقصى درجة من درجات الانهيار • وهكذا أخذت المسيحية على عاتقها أن تصلح من نظام الاسرة الرومانية ، وسرعان ما نجحت فى بناء حياة عائلية سليمة فى المجتمع الاوروبى ، على غرار الحياة العائلية التى وجدت قديما فى المجتمع العبرى • ولكن المسيحية قد قطعت فى هذا السبيل أشواطا بعيدة ، فرفعت من شأن الاسرة وحققت ضربا كبيرا من المساواة بين الرجل والمرأة • وقد بدأت المسيحية بأن أعادت الى الاسرة طابعها الدينى ، فجعلت من « الزواج » سرا مقدسا (Sacrament) أو طقسا دينيا ، وحاربت بشدة كل ميل الى اعتباره مجرد عقد مدنى • ولا شك أن المسيحية حينما خلعت على الزواج طبيعة دينية ، فانها قد أعادت اليه صفة الاستقرار والثبات • كذلك أعلت المسيحية من شأن المرأة ، ورفعت من قدر الطفل ، فدعت الى معاملة النساء بالحسنى ، وحضت على العناية بمصير الاطفال • حقا ان بعض النصوص الواردة فى العهد الجديد تجعل من

www.ibtesama.com/vb

« الرجل رأس المرأة » ، وتدعو النســـاء الى الخضوع لأزواجهن ، ولـــكن المسيحية قـد وضعت النساء (الى حد ما على الاقل) على قدم المساواة من الرجال • وعلى الرغم من أن المسيحية قد جعلت من الزوج أو الاب رب الاسرة ، فانها مع ذلك لم تأخـــذ بالنظام الابوى على اطلاقه ، بل هى قد دعت الى نظام عائلى جديد يقوم على المحبة والتعاون بين أفراد الاسرة الواحدة • ولـــم تكتف المسيحية بتأييد الزواج الواحدى ، بل هى قـد عارضت الطلاق معارضة قاطعة • وحينما اســـتولت الكنيسة على مقاليد الامور فى أوروبا الغربية ، فانها سرعان ما أنكرت الطلاق باعتباره نظـــاما شرعيا ، مستعيضة عنه بنظام « الانفصال » (Separation)
وقد كانت حجة الكنيسة فى تحريم الطـــلاق هى أن « ما جمعه الله لا يفرقه الانســـان » ، وأنه لا يحق للرجل أن ينفصل عن زوجه الا لعلة الزنا • وهـــذان الموقف الحاسم من المشكلة قد عمل على قيام أسرة قوية متماسكة يغلب عليها طابع الثبات والاستمرار •

ثم ظهر الاسلام فى البـــلاد العربية فكان عليه أن يحارب الكثير من البدع الاخلاقية التى كانت سائدة فى المجتمع العائلى اذ ذاك ، كما كان عليه أن يعمل على دعم

www.ibtesama.com/vb

أواصر الاسرة بشتى السبل · ولم تقتصر مهمة الاسلام على تحريم وأد البنات (الـذى كان معروفا عند العرب فى الجاهلية) ، بل هـو قـد قضى على الكثير من ضروب النكاح التى كانت سائدة فى مجتمعات العرب قبـل الاسلام · وعلى الرغم من أن الاسلام قـد أباح تعدد الزوجات ، فانه قـد اشترط على الزوج أن يعـدل بين زوجاته ، كما جعل من ضيق ذات اليـد حـائلا دون ممارسة هـذا الحق · ولم يجحف الاسلام المرأة حقها ، بـل هـو قـد أعـاد اليها شخصيتها المدنية ، فجعل لها من الحقوق مثـل ما لزوجها ، ولم يلزمها عنـد الزواج بأن تختفى وراء زوجها ، أو أن تمحى كل شخصيتها فى شخصية زوجها · ولئن كان الاسلام قد أباح الطلاق على نطاق واسـع (١) ، الا أنه لم يترك المرأة تحت رحمة الرجل ، بل هو قد أوجب على الرجل النفقـة ومؤخر الصداق ·· الخ · وهكذا عمل الاسلام على تحرير المرأة ، ورفع من شـأن الاسرة ، وأقام « المجتمع العائـلى » على أسس قوية متينة ·

---

(١) من المعروف فى الاسلام أن « أبغض الحلال عند اللـه الطلاق » ، فالطلاق مباح وان كان منهيا عنه · والاسلام لم يشـأ أن يضيق على الناس ، فجعل باب الطلاق مفتوحا أمامهم ، ولكنـه فى الوقت نفسه قد حض على معاملة النساء بالحسنى ·

www.ibtesama.com/vb

ولا شك أن كلا من المسيحية والاسلام قد حرص على أن يبقى للزواج طابعه الدينى ، حتى يضمن للاسرة دعامة قوية تكفل لها الثبات والاستقرار • ولكن تعقد أسباب المدنية الحديثة قد جعل الناس يستخفون بهذا النظام العائلى المقدس ، فتعرضت « الاسرة » فى الشرق والغرب للكثير من الاخطار ، وأصبح الكثيرون ينظرون الى الزواج على أنه مجرد عقد اختيارى يمكن فضه لأتفه الاسباب • وليس أدل على صحة ما نقول من تعدد حوادث الطلاق فى الشرق والغرب على السواء ، مما جعل « النظام العائلى » يواجه محنة خطيرة ، خصوصا فى أوروبا وأمريكا منذ أواخر القرن التاسع عشر •

٢٢ ـ والواقع أن النظام المسيحى للاسرة قد استهدف للكثير من الهجمات منذ بداية عصر النهضة ، اذ وجد فيه الكثيرون نظاما صارما لا يتلاءم مع ما فى صفات البشرية من ضعف • وقد تدخلت عوامل كثيرة منذ ذلك الحين ، فعملت على اشاعة جو من الفوضى والاضطراب فى الحياة العائلية ، ولو أن القرون التالية قد شهدت قوى عديدة حاولت أن تعمل على التحسين من « النظام العائلى » ، الى جانب تلك القوى المضادة التى أشاعت الانحلال فى هذا النظام •

www.ibtesama.com/vb

وقد حاول أحد الباحثين الاجتماعيين أن يلخص تلك العوامل المختلفة التى تسببت فى حدوث هذا التطور فى نظام الاسرة منذ بداية عصر النهضة حتى يومنا هذا ، فوضع بين أيدينا أسبابا عديدة نستطيع أن نوجزها فيما يلى : ـ

(١) نشأ فى عصر النهضة مبدأ فصل الدولة عن الكنيسة ، فترتب على ذلك ضعف السلطة الدينية • وهكذا أخذت الاسرة تفقد معناها باعتبارها نظاما دينيا • وحينما صار الزواج فى نظر الكثيرين مجرد عقد مدنى ، فان باب الطلاق لم يلبث أن انفتح على مصراعيه ، وبالتالى فقد ارتفعت نسبة حوادث الطلاق بشكل ظاهر • ونظرا لان العواطف والمعتقدات والمواقف السلوكية التى كانت ذات طابع دينى قد أخذت تستقل عن الاسرة ، فقد وقع فى ظن الكثيرين أن الزواج هو مجرد مسألة شخصية لا تخص الا المزاج الفردى • ولا شك أنه اذا كانت الرابطة الزوجية فى ظل الدين رابطة وثيقة لا تنفصم عراها ، فانها فى ظل الحرية الشخصية رابطة واهية سرعان ما تتحطم على صخرة اللذات الفردية •

(٢) بلغت النزعة « الفردية » أوجها فى بداية القرن التاسع عشر ، خصوصا فى البلاد الغربية التى

www.ibtesama.com/vb

ظهر فيهـــا بعض أنصار هـــذه النزعة من المفكرين والفلاسفة • وقـد اقترن ظهور « الفردية » بانحلال الســـلطة الجمعية وتراجع بعض الافكار التقليدية • وهـــكذا أصبح الناس ينظرون الى « الاسرة الابوية الكبيرة » على أنهـا نظـام قديم بال عتيق ، ولم تلبث الفكرة أن ســـادت بينهم بأن فى وسع أى طرف من الطرفين المتعاقدين فى الزواج أن ينكص على عقبـــه وقتما شـــاء ، أو أن يفض العقد حينما يحلو له ذلك • والحق أن الروح الفردية المتطرفة هى المسئولة عن ميل الكثيرين الى اتخاذ رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم هاديا لهم فى سلوكهم • وتبعـا لذلك فقد انتشرت لـــدى الافراد روح الاهمال وعـدم الاكتراث فى النظر الى « الاسرة » من حيث هى نظـام اجتماعى • ولا ريب أن هذه الروح هى التى أدت الى انعدام الشعور بالمسئولية ، مما ترتب عليـــه أن أصبحت معظم الانظمة الاجتماعية قلقة غير مستقرة ، بما فى ذلك نظام الاسرة نفسه ، فى حين أن الشرط الضرورى لقيام هـذا النظام هو أن يشعر الفرد بمسئوليته ، وأن ينهض بتحمل المهـام التى تترتب على حياته الزوجية ، وأن يعمل على احترام الرابطة التى تجمع بينه وبين الطرف الآخر •

(٣) أثرت التغيرات الاقتصادية التى حـدثت فى

www.ibtesama.com/vb

بداية القرن التاسع عشر تأثيرا بالغا على مركز الاسرة الاجتماعى : فقد كانت الاسرة فى القرن الثامن عشر هى الوحدة الاجتماعية والاقتصادية معا ، نظرا لسيادة النظام العائلى فى الانتـــاج • ونحن نعرف كيف أن الصناعات اليدوية الصغيرة كانت تمارس فى البيت ، وكيف كان أفراد الاسرة يتعاونون بالاشتراك مع بعض الايدى العاملة المستأجرة على انجاز العمل معا ، كما كانوا يتناولون الطعام أيضا حول مائدة واحدة • ولكن بمجرد ما اكتشفت القوة البخارية ، أو بمجرد مـــا اخترعت الآلات البخارية ، فان نمو الصناعات الآلية لم يلبث أن عمل على هـــدم الوحدة الاقتصادية للاسرة• وهـــكذا أصبح أفراد الاسرة يتركون البيت لـــكى يمضوا الى المصنع الذى صـــار هو مقر العمل • وقـــد ترتب على انحلال الاسرة باعتبارها وحـــدة اقتصادية أن ظهر ضرب من التفكك الاجتماعى فى عـــدد كبير من الاسر • ولم يكن فى وسع الأسر أن تستقدم الآلات الحديثة لانتاج حاجياتها فى المنزل ، وذلك نظرا لغلاء أسعار الآلات البخارية ، فكان على الافراد أن يتوجهوا الى المصانع للاشتراك فى الانتاج العام • ومن هنـــا فان الاسر الحديثة لم تعد تقوم بانتاج أى شىء كائنـــا مـــا كان ، بـــل أصبح البعض يتنبـــأ بأن مهمـــة

www.ibtesama.com/vb

اعـداد الطعام قـد تختفى من حيـاة الاسرة ، وذلك حينما تضطر المرأة الى شراء الاطعمـة الجاهزة التى تغنيها عن الانشغال بالطهى !

(٤) عملت حركات « التحرير النسوى » على تغيير مركز المرأة الاجتماعى ، كما أدت الى ازدياد عـدد النساء اللائى يعملن فى المصـانع والوظائف الكتابية والمهن الحرة ... الخ . وهـكذا أصبحت المرأة تتمتع بضرب من الاستقلال الاقتصادى بالنسبة الى الرجل ، كما أخذت تتحرر من سطوة الحياة المنزلية . ونظرا لانشغال عـدد كبير من النساء المتزوجات بأعمالهن اليومية فى المصنع أو المكتب (أو فى أى مقر آخـر للعمل) ، فقـد انصرفت الكثيرات منهن عن الاهتمام بشئون البيت ، مما جعل من « البيت » مجرد فنـدق للنوم ! ولا شك أنه اذا كان فى تقييد المرأة الحديثة بالمنزل حجر على حريتها ، فان فى صرفها عن الحيـاة المنزلية قضاء مبرما على الاسرة . هـذا الى أن فى اشتغال النساء المتزوجات بالمصانع والمحلات عـددا كبيرا من الساعات ، اهمالا مؤكدا لواجب الأم نحو « الطفل » ، وهو ما أدى الى تزايد عـدد الاحداث الهائمين على وجوههم فى الشوارع ، وارتفاع نسـبة

www.ibtesama.com/vb

الجرائم بين الاحداث عموما • وليس من شك فى أن الام التى تجد نفسها مضطرة الى أن تقضى عددا كبيرا من الساعات بعيدا عن بيتها ، لا يمكن أن تجد متسعا من الوقت للاشراف على شئون بيتها ، واعطاء أبنائها الصغار القسط اللازم من العناية والرعاية • وكيف يتسنى للابناء أن ينعموا بعطف أمهم ، أو أن يتلقوا عنها تربية صحيحة ، اذا كان جل وقتها ضائعا بين المصنع والنادى ، أو بين المكتب وحلقات الميسر •• الخ ؟ وفضلا عن ذلك ، فان الملاحظ فى كثير من البلاد الاوروبية والامريكية أن تزايد الفرص أمام النساء للعمل فى المصانع والمحلات قد فوت على الكثيرات منهن فرص تعلم الفنون المنزلية وتلقى علوم التدبير والحياكة والتربية وخلافه • والواقع أن نساء كثيرات أصبحن يتوهمن أنهن أسمى بكثير من أن ينزلن بأنفسهن الى هذا المستوى ، ولذلك فان الواحدة منهن حينما تصبح زوجة وأما ، لا تلبث أن تجد نفسها بازاء مهمة لم تعد لها ، أو بازاء تبعة لا طاقة لها على النهوض بها • ونظرا لحاجة مثل هؤلاء النساء الى الالمام

---

(١) قدم الدكتور بولبى (John Bowlby) الى منظمة الصحة العالمية تقريرا هاما تحت عنوان « رعاية الأم والصحة العقلية » دافع فيه عن رسالة الأم ، وكشف عن آثار اهمال الطفل على صحته الجسمية والنفسية ، فنلفت النظر الى هذا التقرير الهام •

www.ibtesama.com/vb

بشئون البيت ، فانهن يجعلن من الحياة المنزلية جحيماً لا يطاق ٠

(٥) كذلك أثرت على الاسرة فى الحضارة الغربية ، خصوصا فى القرن الماضى ، عوامل اقتصادية كثيرة من أهمها « تضخم الثروة » ٠ وذلك لأن امتلاك الثروة واكتساب ما يترتب عليها من قوة اجتماعية قد عملا على تحرير الكثيرين من عامل الخوف ، ودفعا بهم من ثم الى تحدى الكثير من القواعد الاجتماعية ٠ وهكذا أثر نمو الثروة على نظام الاسرة ، لانه ساعد على انحلال المستويات الاخلاقية ، وضعف الروابط العائلية ٠

(٦) أدى نمو « العلم » ، وتزايد المعرفة ، وانتشار النظرة الآلية الى الكون ، وشيوع المذهب السلوكى فى تفسير النفس البشرية وما الى ذلك من معتقدات حديثة ، أدى هذا كله الى اعتبار الاسرة مجرد « نظام آخر » ينبغى العمل على التخلص منه ، أو مجرد « حيلة طبيعية » لابد من العمل على اجتنابها ٠ وقد كان من أثر انتشار المعلومات العلمية المتعلقة بسيكولوجية الجنس ، وطرق منع الحمل ، ومبادىء تنظيم النسل وما الى ذلك ، أن أصبحت فكرة « قدسية الزواج »

www.ibtesama.com/vb

مجرد فكرة عتيقة لا يكاد أحد يدين بها أو يستريح اليها ٠

(٧) هـــذا وقد كان القرن التـــاسع عشر قرنا عاصفا حافلا بالقلاقل الاجتماعية ومظاهر عـــدم الاستقرار ، فترددت أصداء هـذا القلق الاجتماعى فى « النظام العائلى » ، وظهرت بالتالى آثار الاضطراب واضحة على الاسرة الغربية فى بداية القرن العشرين ٠ وهكذا أصبحنا نرى الناس مختلفين كل الاختلاف فى وجهات نظرهم الى الزواج : هـذا يرى أنه سر مقدس أو نظام الهى يوثقه الله فى السماء ، وذاك يرى أنه صلة يتخذها النوع للعمل على استمرار البقاء !

(٨) أصبح الكثير من الاسر الامريكية يؤثر المعيشة فى الفنادق والبيوت المفروشة عن اتخاذ مسكن خاص به يشرف على ادارته وتدبير شئونه ٠ ولا شك أن حياة الفندق لا تسمح بنمو الروح المنزلية فى نفس المرأة ، فضلا عن أنها تقضى على « النظام العـــائلى » بمعنى الكلمة ، خصوصا حينما يكون ثمة أطفال يحتاجون الى العناية والرعاية ٠

(٩) تعقدت أســـباب المعيشة فى معظم البـــلاد الاوروبية والامريكية ، فظهرت أزمة المساكن ، وارتفعت أجورها ، وأصبحت الاسر تحيا فى شقق صغيرة لاتتسع

www.ibtesama.com/vb

لكل أفرادها ، مما نتج عنه انعدام الاستقرار في حياة الكثير من الاسر ، وعلى الخصوص في المدن الكبرى المزدحمة بالسكان • ولا شك أنه حينما يحيا عدد كبير من أفراد الاسرة في حجرة واحدة ، فان الحياة العائلية لا بد من أن تصبح عندئذ أقرب الى المستحيل • هذا الى أن ظهور «العمارات الاستغلالية» ، واهتمام الملاك بالاثراء السريع على حساب المستأجرين، قد عملا أيضا على انعدام الشروط الصحية للمسكن الملائم • وهكذا أصبحت الامر الكبيرة تواجه الكثير من المشكلات ، خصوصا في البلاد التي لم تساير فيها حركة البناء التزايد المستمر في عدد السكان ، أو في البلاد التي لم تستطع منذ الحرب الاخيرة حتى اليوم أن تحل أزمة المساكن على الوجه المرضي •

(١٠) ارتفعت المستويات الاجتماعية للمعيشة في كثير من المدن ، فترتب على ذلك انعدام الاستقرار في الحياة العائلية ، وذلك لان كثيرا من الافراد قد أصبحوا يعملون على الظهور بمظهر اجتماعي معين ، أو المحافظة على مستوى اجتماعي مرتفع ، على حساب سعادتهم المنزلية • ولا شك أن ضرورة مواجهة بعض الظروف الاجتماعية التي قد تستلزمها حياة

www.ibtesama.com/vb

المدنية هى المسئولة الى حـــد كبير عن تفكك الكثير من الاسر ٠

(١١) أدى ارتفاع مستوى المعيشـــة فى كثير من البلدان الاوروبية والامريكية الى احجام الشـــــبان عن الزواج ، أو تأخرهم فى الزواج حتى يصـلوا الى درجـــة تسمح لهم بأن يعيشـــوا فى مســتوى راق ٠ وعلى الرغم من أن للزواج المبكر اضراره التى سبقت الاشـــارة اليها ، فان للزواج المتأخر أيضـــا عيوبا كثيرة ، خصوصا حينما يكون الشخص قد تصلب فى عاداته وأساليب معيشته ، فيصبح « التكيف » بالنسبة اليه مهمة عسيرة لا تتلاءم مع كبر سنه ٠ ونحن نعرف أن استقرار الحياة العائلية يتوقف الى حـــد كبير على مدى القابلية للتكيف عند الراغبين فى الزواج (١) ٠

(١٢) تعرض نظام الاسرة فى كثير من بلدان الغرب لاخطار هامة نتيجة لنقص حجم الكثير من الاسرات ، فلم نعد نلتقى بتلك المجتمعات العائلية الكبيرة التى كنـــا نجدها قديما فى القرى والبلاد الريفية ٠ ولاشك أن انخفاض نسبة المواليد فى أوروبا وأمريكا انمـا يرجع الى ارتفاع تكاليف المعيشة وصعوبة تربية الاولاد فى مجتمعات تقل فيها امكانيات الفرد المادية والاقتصادية

---

(١) E. S. Bogardus : "Sociology", pp. 65 — 69.

www.ibtesama.com/vb

عن المستوى اللائق بالمعيشة • ولعل هـذا هو السبب فى أن كثيرا من بلدان الغرب قد اتجهت الى تشجيع الاسر الكبيرة بمنح العلاوات الاجتماعية ، وتقديم يـد العون للمرأة ابان الحمل وعند الوضع ، ومنح الابناء مكافآت لمواصلة دراستهم •• الخ • وهـذا مـا اتجهت اليه أخيرا روسيا السوفيتية نفسها ، بعد أن كانت قـد تركت للناس مطلق الحرية (بادىء ذى بدء) فى أن يأخذوا بنظام الاسرة أو أن يتنكبوا سبيله فعمدت الى توطيد دعائم النظام العائلى بأن ضيقت من نطـاق الطلاق ، وشجعت الاسرة الكبيرة ، ومنحت المـرأة المتزوجة (التى لها أولاد) الكثير من الحقوق والمزايا• وهكذا نشأ فى روسيا نظام « ميداليات الامومة » ، وأصبحت الصحافة تتحدث عن « بطولة الام » ، و « فخر الابوة » و « لذة الحياة العائلية » و « أهمية الزواج » •• الخ » (١) • ولا شك أن الاخطـار الاجتماعيـة التى تعرضت لها روسيا السوفيتية بعد الحرب الاخيرة هى التى ردت الى المشرع الروسى صوابه ، فحملته على الاعتراف بأهمية المجتمع العائلى •

* * *

(١) Cf. H. Chambre : "Le marxisme en Union Soviéti-que", Seuil, Paris, 1955, pp. 74 — 75.

www.ibtesama.com/vb

وصفوة القول أن نظام الاسرة قد تطور من حيث الوظيفة والنطاق : فتنازلت الأسرة الحديثة عن معظم وظائفها القديمة للدولة (كوظيفة الانتاج ، والقضاء ، والتعليم ٠٠ الخ) ، كما ضاق نطاقها فأصبحت لاتكاد تشمل الا الأب والأم والاولاد المباشرين ٠ وهكذا ضعفت الروابط العائلية التى كانت تجمع بين أفراد العشيرة الواحدة ، ولم يعد الافراد يحفظون فى قلوبهم لهذا النظام العائلى ما كان يحفظه له السلف من التقدير والتقديس والاحترام ٠ وسنرى فيما يلى الى أى حد يمكن القول بأن الاسرة لازالت هى الخلية الاولى فى الحياة الاجتماعية لدى المجتمعات الحديثة ٠

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

الفصل الخامس

الاسرة المتكاملة

٢٣ ـ تحدثنا فى الفصل السابق عن تاريخ المجتمع العائلى وتطور نظام الاسرة فى المجتمعات الحديثة ، ونريد الآن أن نعرض لدراسة « الاسرة المتكاملة » التى تحقق سعادة الزوجين ، ومصلحة الابناء ، وخير المجتمع • ولما كنا قد تحدثنا فى فصل سابق عن السعادة الزوجية ، فاننا سنقصر حديثنا هنا على دراسة الجوانب الاجتماعية التى تتصل بوظيفة الاسرة باعتبارها نظاما اجتماعيا • ولكن لابد لنا من أن نلاحظ أن « التكامل » يستلزم ضربا من التوافق أو الانسجام بين الجانب المادى ، والجانب النفسى ، والجانب الاجتماعى ، فليس من الممكن أن تصبح الاسرة الحديثة « متكاملة » بحق الا اذا نجحت فى تحقيق هذا التوافق بين وظائفها المادية والنفسية والاجتماعية • والواقع أن الرابطة الزوجية ـ كما لاحظنا مرارا ـ ليست مجرد رابطة جنسية ، أو وحدة مادية تحقق مصلحة الطرفين، وانما هى رابطة روحية ، ووحدة عاطفية ، وسعى مشترك فى سبيل تحقيق مثل أعلى موحد • ولكن

www.ibtesama.com/vb

أعلى المرامى الروحية لا يمكن أن تتحقق الا على أساس مادى ، وأسمى الغايات الاخلاقية هى فى حاجة دائما الى دعامة حسية تقوم عليها ، ولهذا فان « الاسرة المتكاملة » لا بمكن أن تتحقق الا على أساس من الوراثة الصالحة أو التكوين البيولوجى السليم • وهذا ما حدا بالكثير من علماء الاجتماع الى التحدث عن « الاسرة اليوجينية » (Eugenic Family) ، أى الاسرة القائمة على مبادىء علم تحسين النسل •

ونحن نعلم أن الاسرة هى الاداة البيولوجية التى تنتقل من خلالها السمات الوراثية من جيل الى آخر ، كما أنها الوسيلة الطبيعية التى تضمن للمولود الصغير العناية والرعاية حتى يبلغ من العمر حوالى عشرين سنة (وهى الفترة اللازمة فى العادة لتجهيز الكائن البشرى بمعدات الدفاع فى معركة البقاء) • وليس من شك فى أنه حينما تكون الاستعدادات الوراثية لدى كل من الابوين سليمة ، فان مهمة تربية الطفل تجد أمامها مواد صالحة يمكن العمل على تنميتها واستثمارها، على حين أنه حينما تكون العوامل الوراثية لدى الوالدين سيئة أو ضعيفة ، فان كل تربية يلقنها الوالدان لابنائهما لن تعوضهم هذا النقص الوراثى • وقد استطاع العلماء أخيرا أن يمدونا بالكثير من المعلومات عن

www.ibtesama.com/vb

القوانين التى تتحكم فى الوراثة والتطور واختلاط الاجناس ، كما نجح قوم منهم فى الوصول الى بعض الحقائق العلمية الاكيدة عن الوراثة النباتية والوراثة الحيوانية • ثم ظهرت حديثـا حركة تدعو الى تطبيق قوانين الوراثة على الكائنات البشرية ، من أجـل العمل على تحسين نسل بنى الانسان • وقد كان أول من دعا الى هـذه الحركة جالتون (F. Galton) فى نهاية القرن التاسع عشر ، وهو الذى أطلق لاول مرة اسم « علـم تحسين النسل » (Eugenics) على تلك الدراسة العلمية التى يراد بهـا تحقيق برنامج يضمن لكل طفـل أن يولد مزودا بتركيب عضوى سليم • وهـذا العلم الجديد قـد أصبح اليوم يركز كل جهوده فى تطبيق مبادىء الوراثة والتغير على الحياة البشرية ، من خلال الاسرة بصفة خاصة (١) •

وثمة منهج « يوجينى » يريد أصحابه (بالالتجاء الى التربية والوسائل القانونية) أن يعملوا على تثبيط همـة الراغبين فى الزواج من الاشخاص غير اللائقين جسميا أو عقليا • والغرض من هـذا المنهج هـو العمل بكافة الوسائل على وضع حـد للابوة الفاسدة

---

(١) Cf. E. S. Bogardus : "Sociology", 4th Ed., 1955, Macmillan, pp. 90 — 91.

www.ibtesama.com/vb

(أو غير الصالحة) • وتحقيقا لهذا الغرض ، فقد دعا أصحاب هـذا المنهج الى عـزل الاشخاص المنحلين جسميا أو عقليـا فى مؤسسات عامة يعقمون فيهـا حتى لا يتسنى لهم أن يتكاثروا • وهنـاك وسيلة أخرى يرى أصحابها أنه لابد من منع الاشخاص الذين يقل مستوى حالتهم الصحية عن المعدل اللازم للشخص السليم ، من الزواج وانجاب النسل • وقد قامت نتيجة لهـذا الرأى حركة يراد بهـا وضع نظام صارم لايسمح بالزواج بمقتضاه الا لأولئك الاشخاص الذين يقدمون شهادات طبية تفيد صلاحيتهم للزواج من مكتب صحى معترف به أو من طبيب رسمى (١) • هـذا وانه لفى استطاعة الحكومات من بعد أن ترفع رويدا رويدا من المستوى الصحى اللازم لمنح الاشخاص تصريحا بالزواج • ومعنى هـذا أن الغرض الاسمى الذى يهدف اليه عالم تحسين النسل انما هو العمل على ظهور جيـل قوى موفور الصحة من الرجال والنساء • وهـو قد لا يجد حرجا فى هـذا السبيل من أن يتدخل فى ارادة الافراد ، فان الحرية ليست قيمة فى ذاتها ، وانما هى وسيلة تعيننا على تحقيق سـعادة الافراد والمجتمع معـا • وأما اذا احتج البعض بقوله ان من حق الفرد

---

(١) المرجع السابق •

www.ibtesama.com/vb

الضعيف (أو المريض) أن يتزوج ، فان فى استطاعتنا أن نرد عليه بقولنا : « ولكن من حق المجتمع أن يحول بينه وبين التناسل وخلق جيل ضعيف محطم » • ولاشك أن فى استطاعة الحكومات ، عن طريق حملات منظمة من الآراء العامة والدعايات العلمية ، أن تصرف الشواذ عن التفكير فى الزواج ، ولو أن هـذا الهدف لا يمكن أن يتحقق الا اذا اقترن بنمو الشعور الاخلاقى وترقى روح التضحية فى سبيل المصلحة العامة لدى الافراد جميعا •

بيد أن عالم تحسين النسل سرعان ما يجد نفسه بازاء مشكلة اجتماعية قد لا تقل خطورة ، وتلك هى مشكلة « الابوة غير الشرعية » ، وذلك لان منع بعض الاشخاص من الزواج قد يؤدى الى زيادة عدد المواليد من الاطفال غير الشرعيين والواقع أننا حينما تريد من صرامة قوانين الزواج بما قـــد لا يتحمله الرأى العام ، فاننا نعمل بطريقة غير مباشرة على زيادة عدد الاطفال المولودين خارج فراش الزوجية • ولهـــذا فانه لابد لعالم تحسين النسل من أن يســـير على منهج حكيم قوامه التدرج وتهيئة الرأى العام ، حتى لا يجد نفسه بازاء ثورة شعبية أو تمرد جمعى أو استياء عام • ولعل هـــذا هو الاصل فى ظهور منهج « يوجينى » آخر رأى أصحابه أنه أكثر صلاحية ، نظرا لانه يقوم

www.ibtesama.com/vb

على اعداد الرأى العام لتقبل مستويات شخصية جديدة فى الزواج تكون المعايير فيها أسمى وأرقى • والحق أن العوامل التى تؤثر فى اختيار الزوج أو الزوجة فى المجتمعات الحديثة لاتكاد تعدو حتى اليوم عوامل الحب أو الثراء أو المركز الاجتماعى • وليس من النادر أن يتحكم عامل الثروة وحده فى اختيار الرجل لشريكة حياته (أو العكس) ، دون مراعاة لاى عامل آخر سواء أكان بيولوجيا أو جنسيا أو سيكولوجيا • وهنا يتدخل عالم تحسين النسل فيحاول أن يقنعنا بأن الوراثة الصالحة أو الاستعداد الجسمى السليم لابد من أن يجىء فى ترتيب الاهمية قبل عامل الثروة أو المركز الاجتماعى أو أى عامل آخر • وحجته فى ذلك هى أن الثراء الذى لا يقترن بالصحة ، والمركز الاجتماعى الذى لاتصحبه وراثة سليمة ، انما يؤديان الى قيام زواج فاشل يستند الى بواعث واهية • وهكذا يحرص عالم تحسين النسل على تأكيد أهمية « عامل الدم » فيقول بأن الزواج الذى يتم بين صغار السن أو ضعاف الاجسام أو شواذ العقول هو زواج مقضى عليه بالفشل ابتداء •

وان عالم تحسين النسل ليذهب الى حد أبعد من ذلك فيقول بأن دعامة الأسرة الناجحة هى الاستعداد الوراثى الممتاز ، والحيوية الجسمية الفائقة ، والمستوى الصحى الراقى • ولذلك فان من واجبنا أن نربى

www.ibtesama.com/vb

النشء بحيث نبث فى عقله فكرة « الوراثة السليمة » ، حتى يستند من بعد فى اختياره لشريكه المثالى الى عوامل الصحة الجيدة والحيوية البالغة ، بدلا من أن يصـــدر فى اختياره عن اعتبارات الثراء أو المركز الاجتماعى · ولا شك أنه لو قدر لهذه الفكرة أن تنتشر فى مجتمعاتنا الحديثة ، لمـــا سقط الكثيرون صرعى لعاطفة هوجاء أو هوى طائش · وليس معنى هذا أن عـــالم تحسين النسل يريد أن يستبعد عامل « الحب » من الزواج ، وانما هو يريد أن يسمو بهـذا الحب الى درجة عليـا من الحيوية ، فيجعله متناســـقا مع دواعى الوراثـــة السليمة ومستويات الصحة الجيدة · وهـكذا نجد أن الهدف الذى يرمى اليه علم تحسين النسل ، انما هـــو بناء جنس بشرى ممتاز ، وخلق مجتمع عائلى قـوى ، ومحو أسباب الضعف والانحلال فى المجتمع ·

٢٤ ـ ولعلم تحسين النسل فروع كثيرة لعل أهمها ذلك الفرع الوقائى (Preventive Eugenics) الذى يرمى الى حماية الابوة من سموم النوع البشرى ، وفى مقدمتها الادمان على الخمر وتعاطى المخدرات · وقـد ثبت أن المشروبات الكحولية تؤثر تأثيرا سـيئا على الاعضاء التناسلية ، فضلا عن أنها تضر بتكوين الخلايا نفسها وحينما يعمـــل المجتمع على وقاية أفراده من الشرور الناجمة عن الادمان على الخمر ، فانه انما يقى نفسـه

www.ibtesama.com/vb

شر ذلك السم الاجتماعى الخطير • ولا نرانا فى حاجة الى التوسع فى الحـــديث عن الآفات الاجتماعية التى تترتب على تعاطى المخدرات ، فان من المعروف أن لهذا السم الخبيث أثره الفتاك على الجهاز العضوى ، مما يترتب عليه تعريض النسل لوراثة ضعيفة محطمة • وثمة أدواءأخرى لابد من الاشارة اليها مثـل الامراض التناسلية الخبيثة التى تفتك بالاعضاء التناســـلية خصوصا لدى المرأة فتتسبب أحيانا فى حدوث العقم أو فى تعريض الجسم لآلام عضوية حادة • هـذا الى أن ميكروبات الســـل قد تؤثر أيضا على الخـــلايا النوعية فتعمل على ظهور جيـــل ضعيف لا يقوى على المقاومة ، أو نسل مريض لاطاقة له على العمل • وليس لعلم تحسين النسل الوقائى من هدف سوى العمل على تجنيب الاسرة ويـــلات كل تلك الشرور الاجتماعية الفتاكة •

كذلك يهتم هـذا الفرع الوقائى بتحذير الافراد من خطر التزاوج بين « النماذج البشرية المتنافرة » (Disharmonic types) وذلك لانه حينما تـــكون السمات الوراثية لدى الابوين متباينة كل التباين ، فان من المحتمل أن يتسبب عن هـــذا التباين ظهور سمات متنـــافرة لدى الابناء • وهـكذا قد يحدث أن يرث

www.ibtesama.com/vb

شخص ضخم الحجم قلبا صغيرا ، أو العكس • وقد يجد الشخص فى نفسه حوافز قوية متعارضة يرجع الاصل فيها الى وجود تنافر عضوى فى صميم تكوينه البيولوجى • ويذهب بعض علماء تحسين النسل الى حد أبعد من ذلك فيقول بأن تنافر السمات النفسية قد يظهر بوضوح فى نسل الوالدين اللذين تختلف طبيعة كل منهما النفسية عن طبيعة الآخر اختلافا شاسعا • ومثل هذا التنافر (فيما يزعم هؤلاء) قد يتسبب فى حدوث صراع نفسى عميق فى صميم الحياة النفسية لدى هؤلاء الأبناء ، مما قد يؤدى الى عجزهم عن التصرف فى المواقف المختلفة التى تواجههم ، نتيجة لتصارع تلك القوى المتعارضة فى باطن نفوسهم • ولكننا نميل الى الظن بأن الصفات المكتسبة والسمات الشخصية لا تنتقل بالوراثة ، على العكس مما يذهب اليه أحيانا بعض علماء تحسين النسل • فليس من الصواب أن نرد « التناقض العاطفى » (Ambivalence) الى أسباب وراثية تجعلها هى المسئولة عن ظهور سمات تنافرية لدى هؤلاء الافراد ، وانما يجب أن نقرر أن مثل هذا الموقف الوجدانى هو نتيجة لعوامل أخرى نفسية شعورية كانت أم لا شعورية وعلى الرغم من أهمية الوراثة ، فانها ليست بالعامل

www.ibtesama.com/vb

الفيصل الـــذى يحدد كل مصير الفرد ، كما وقع فى ظن البعض ٠

ولكن هـــذا لا يمنعنا من أن نقرر مع الكثير من علماء تحسين النسل بأن ضعف الذرية وانحطاط قدرتها العقلية يرجع فى كثير من الاحيان الى عامل الوراثة ٠ وهذاهو السبب فى فشل الزواج بين الاقرباء (inbreeding) خصوصا حينما تكون درجة القربى وثيقة فلا يكون ثمة عناصر جديدة تترتب على مثـل هـذا الاقتران ٠ وقـد ثبت من قوانين الوراثة أن ضعف الذرية جسميا أو عقليا كثيرا ما يجيء نتيجة لهذا الزواج الذى يتم بين ذوى القربى ، اذ تنتقل الى الاعقاب كل الصفات السيئة الثابتة فى الاصـــول القريبة ، وبعض الاستعدادات الضعيفة أو الشاذة فى الاصول البعيدة ٠ وهذه الظاهرة قد تشاهد فى الاسر الريفية التى تحافظ على العصبية ورابطة الدم ، كما قـد تشاهد أيضا فى بعض العائلات المالكة التى ترفض التصاهر مع أية أسرة عادية من صميم الشعب ٠ وعلى الرغم من أن عالم تحسين النسل يحض على اختـــلاط الاجناس ، فانه مع ذلك يرفض زواج الاقارب لانه يؤدى الى ضعف الذرية ، كما يرفض زواج الاجانب لانه يقود الى التنافر (Cf. C. W. Saleely : "The Eugenic Prospect". N. Y., (1921) disharmony)

النسل وتنظيم الذرية ، فنراهم ينادون بفكرة « الابوة

www.ibtesama.com/vb

المنظمة » (Planned Parenthood) ، بمعنى ألا يصبح الشخص أبا الا بناء على قصد ورغبة ، لا بطريق الصدفة والاتفاق • وهم لذلك يدعون الحكومات الى ارشاد المتزوجين الى طرق تحديد النسل ، والعمل على مساعدتهم عمليا فى هذا السبيل بفتح العيادات التناسلية للجمهور حتى يقف كل فرد على الوسائل الفعالة لتنظيم نسله والتحكم فى عدده • ولا بد هنا أيضا من أن يفهم الجمهور أهمية « انجاب النسل على فترات متباعدة » (Child Spacing) حتى لا ترهق الأم ، أو لا تكون ضحية لجهل الرجل • وليس من شك فى أنه حينما ينظر الرجل الى المرأة على أنها مجرد آلة لانجاب النسل ، أو حينما يضرب صفحا عن التفكير فى المستوى المادى الذى يجب أن يكفله لبنيه ، فانه عندئذ قد لا يكترث فى كثير أو قليل بأن يحدد نسله أو أن ينظمه على فترات ، وأما حينما يدخل فى اعتباره صحة الام وضرورة التوفيق بين عدد نسله وبين امكانياته المادية ، فهنالك لا يكون غرضه من الزواج هو انتاج أكبر عدد من الابناء ، بل العمل على توفير أسباب الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية لعدد محدود من الابناء • وقد أصبح معظم الناس اليوم يميلون الى الاخذ بفكرة تنظيم النسل ، بمعنى أن تكون « الابوة »

www.ibtesama.com/vb

فعلا مرادا ، والا تجيء وحى الصدفة ، أو ثمرة لباعث جنسى أعمى • وفضلا عن ذلك ، فانه لمن الواجب على الوالدين أن يمتنعوا عن انجاب النسل حينما يعلم بأحدهم مرض خطير (كالسل أو الزهرى) ، أو حينما تكون ثمة اعتبارات صحية أخرى تستلزم الاحجام عن انجاب النسل • وفى كل هذه الحالات لابد من أن تكون القاعدة هى مراعاة صحة الام ، ومستقبل الطفل ، وعدم التضحية بالشخص السوى العادى فى سبيل شخص منحرف شاذ •

تلك هى المبادىء الهامة التى ينادى بها أنصار علم تحسين النسل ، وهى تشهد جميعا بأن الفكرة السائدة عندهم هى أن الجسم السليم والعقل السليم هما الضمان الوحيد لتكوين المواطن الصالح • ولا شك أن هذا العلم بطبيعته لا يكترث كثيرا بالقيم الروحية ، والمبادىء الاخلاقية الانسانية ، وفكرة المسئولية الجمعية ، فضلا عن أنه لا يقيم وزنا كبيرا لعامل خطير هو « البيئة » ، ولكن من المؤكد أن علم تحسين النسل يسير دائما جنبا الى جنب مع علم التربية : لأن التربية هى التى تعلم الفرد كيف يعمل على السمو بنفسه نحو درجة عليا من الحيوية ، وكيف يضمن لنسله وراثة صالحة أو تركيبا بيولوجيا ممتازا • وكذلك

www.ibtesama.com/vb

يستطيع المجتمع العائلى ، عن طريق التربية ، أن يعمل على تحسين البيئة المادية والروحية التى سينشـــأ فيها النسل • وهـكذا يمكن القول بأن علم تحسين النسل يتيح للافراد والجماعات أن تزيد من قوتها الجســمية وقيمتها الروحية ، فيقضى بذلك على الاجيال الضعيفة جسميا وعقليا (١) •

٢٥ ـ من هذا كله يتبين لنـا أن النوع البشرى لابد من أن يتكاثر بطريقة انسانية تليق بموجودات ناطقة تتمتع بالعقل والارادة • ومعنى هـــذا انه اذا كان الحيوان مقودا فى صلاته الجنسية بغريزة عمياء حتمية هى غريزة التكاثر ، فان الانسان (على العكس من ذلك) يعرف الغاية التى تهدف اليها تلك الغريزة، وهو يملك من القوة ما يستطيع معه أن يخضعها لعقله وارادته • وتبعا لذلك فان « الاسرة البشرية » لا بد من أن تقوم على « **الزواج الواحدى** » (Monogamy) الذى يضمن للزوج والزوجة أكبر قسط من التعادل ، كما يضمن للابناء أعلى درجـــة من العناية • وقبل أن نتحدث عن المميزات الاجتماعية لهذا النظام العائلى ، نرى لزاما علينا أن نشير فى ايجاز الى تاريخ النظـام

---

(١) Cf. E. S. Bogardus : "Sociology", 4th ed., 1955, pp. 93 — 94.

www.ibtesama.com/vb

« التعددى » فى الزواج • وهنـا نجد أن نظـام « تعدد الازواج » (Polyandry) (وهو النظام الذى تقترن فيه المرأة بعدة أزواج) قد عرف من قديم الزمن عنـد بعض القبائل البدائية • ولا زال هـذا النظام قائما فى بعض أقاليم التبت حيث تحتاج الاسرة الى جهود أكثر من رجل فى سبيل العمل على النهوض بتبعات الحيـاة العائلية ، خصوصا وان ظروف المعيشة هنـاك غـاية فى الصعوبة والعسر • ولكن الظاهر أن هـذا النوع من الزواج يكاد يكون نادرا ، كما أنه يقترن فى العادة ببعض الظروف الاقتصادية المعينة أو بعض الشروط الاجتماعية الخاصة •

وأما النظام التعددى المشهور فى الزواج فهو فى العادة نظـام « تعدد الزوجات » (Polygamy) وهو ذلك النظام الذى يقترن فيه الرجل بأكثر من زوجـة فى وقت واحد • (ويجب أن نلاحظ بهذه المناسبة أن لفظ « الزواج التعددى » (Polygamy) يشمل فى العادة نظام تعدد الأزواج (Polyandry) ونظام تعدد الزوجات (Polygamy) معا) وقد ذهب بعض علماء الاجتماع الى أن نظام تعدد الزوجات قـد اقترن فى الاصـل بنظام الرق : وذلك لان النساء المسبيات فى الحروب كن يصبحن زوجات أو خليلات أو رقيقـات

www.ibtesama.com/vb

للرجل الذى يأسرهن • و « الخليلة » بهذا المعنى لم تكن سوى زوجة فى حكم الرقيقة • وكذلك عرف نظام شراء الزوجات فى المجتمعات التى كانت تقبل تعدد الزوجات ، فكان رئيس القبيلة أو العشيرة يشترى مجموعة من النساء ، على نحو ما يشترى قطعة من الارض أو قطيعا من الماشية ، بغية زيادة نصيبه من الملكية • ويقال أن عدد الزوجات فى بعض الاحيان كان يصل الى المئات أو الالوف ، فكان لدى سليمان الحكيم ٧٠٠ زوجة و ٣٠٠ خليلة ، بينما بلغ عدد نساء الملك فى لوانجو (Lloango) حوالى ٧٠٠٠ زوجة (١) ! ويذهب بعض الباحثين الاجتماعيين الى أن نظام تعدد الزوجات ، حتى فى البلاد التى أخذت به أو مارسته بالفعل ، لم يكن نظاما عاما سائدا لدى كل الطبقات ، وانما كان نظاما خاصا لم يتجاوز دائرة الطبقة الممتازة أو طبقة الاشراف • ومعنى هذا أن النظام المشار اليه لم يظهر الا بعد أن زاد حظ المجتمعات البشرية من الثراء ، فأصبح فى استطاعة رجل واحد أن يتكفل باعالة جيش من النساء والاطفال ! ولكن ليس بصحيح ما يذهب اليه بعض علماء الاجتماع من

---

(١) Cf. E. Westermarck : "The History of Human Marriage", London, Macmillan, 1902.

www.ibtesama.com/vb

أن نظام تعدد الزوجات يكاد يكون قاصرا على الطبقات الغنية ، بدليل أننا نشـــاهد فى مصر (وغيرها من البلاد العربية) أن هـذا النظام منتشر لدى الطبقات الفقيرة والمتوسطة بدرجة قد لا تقل (ان لم تزد) عن درجـــة انتشـــاره لـــدى الطبقات الغنيـة • وربمـــا كانت أهـم الـــدوافع التى تعمـــل على انتشار هـذا النظام فى بعض المجتمعات هى قوة الحافز الجنسى لدى الرجل ، أو رغبته فى توسيع أسرته وتخليد اسمه ، أو اعتماده على الاطفال فى بعض الاعمـــال الزراعية ، أو حبه للنسل وميله الى ترك أكبر عـدد ممكن من الذرية ، أو نزوعه الى اظهـار ثرائه وعلو مركزه الاجتماعى • والمشاهد عندنا فى العادة أن تعدد الزوجات هو مظهر لخصوبة الرجل الانتاجية ، فضلا عن الاطفـــال فى الاسر الريفية هم بمثابة عنـاصر منتجة ، ولذلك فان نظام تعـــدد الزوجات يظهر فى القرى أكثر مما ينتشر فى المدن • هـذا الى أن أهـل القرى لا يحملون هما فى تربية أولادهم ، وبالتـــالى فانهم لا يشعرون بفداحة المسئولية التى تقع على عاتق رب الاسرة الكبيرة • ولكن مهما كان من أمر الدوافع التى تحدو الرجل الى الاقتران بأكثر من زوجـــة ، فان من المؤكد أن فى هـــذا النظام اهدارا لكرامـــة الزوجة الاولى ، وتضحية بعاطفتها ، ما دام الزوج انما

www.ibtesama.com/vb

يتخلى عنها لكى يقترن بأخرى أصغر منها سـنا أو أكثر منها جمالا ، أو أفضل منها مركزا ·· الخ · وفى كل هـذه الحالات لابد من أن تفقد الزوجة الاولى حب زوجها واقباله عليها ، فلا يكون موقفها منـه سـوى موقف الكراهية والعداء ، كما تنشأ فى نفسها روح الحقد والغيرة نحو الزوجة الجديدة ·

أما الزواج الواحدى الذى فيه يقترن الرجـل بزوجة واحدة ، فهو بـلا شك أكثر ضروب الزواج تعبيرا عن نضج الشخصية البشرية ، لان فيه من الثبات والاستقرار مـا يخلع على الحياة الزوجية طـابع الاستمرار · واذا كان الزواج الواحـدى أصـدق تعبيرا عن الطبيعة البشرية من أى زواج آخر ، فذلك لأن لدينا ميلا طبيعيا الى رد الكثرة الى الوحدة ، أو الانتقال من التعدد الى الواحدية ، كما أن من أخص خصائص الموجود البشرى الناضج نزوعه نحو صـورة ثابتة حاسمة من صور العلاقة الجنسية · وهكذا لابد من أن تأتى على الرجل لحظة يشعر فيها بحاجته الى تحقيق شىء حاسم ذى طابع نهائى ، والاقتران بشخصية فريدة يرتبط بها الى الابد ! وان حياة لم يحقق فيها الانسان شيئا حاسما ، ولم يستطع فى خلالها أن يصل الى غاية ، لهى حياة فاشلة ضائعة ، ان لم نقـل شـاذة

www.ibtesama.com/vb

منحرفة • واذن فان الشخصية الناضـــجة التى تنزع نحو الثبات وتميل الى الاستقرار سرعان ما تدرك أن الزواج الواحدى سنة الطبيعة ، وأنه لا بد للرجل من أن يربط مصيره بشخصية واحدة يخلص لها وتخلص له ، ويتعاون كلاهما على تحقيق هـــدف مشترك وغاية موحدة • وبهذا المعنى يكون الزواج بمثابة اتحـــاد أبدى يتم بين رجل واحد وامرأة واحدة (١) •

وربما كان فى استطاعتنا أن نلخص المزايا التى ينطوى عليها نظام الزواج الواحدى على النحو التالى :

١ ــ يضمن « الزواج الواحدى » للابناء أكبر قسط من الرعاية ، وذلك لان الزوج والزوجة فى هـــذا النظام يتحدان اتحادا وثيقا ويشتركان فى العمل سويا لمـــا فيه مصلحة أبنائهما • وقد ثبت أن مدى اهتمام الابوين بتربية أبنائهما فى ظل نظام الزواج الواحدى أكبر بكثير منـــه فى أية رابطة زوجية أخرى •

٢ ــ يتوافر فى الاسرة القائمة على الزواج الواحدى أعلى ضرب من ضروب التعاطف الوجدانى ، والحب الايثارى ، والوفاء المتسامح • وأما فى الزواج التعددى

---

(١) Cf. Oswald Schwarz : "The Psychology of Sex." London, Penguin, 1953, pp. 218 — 219.

www.ibtesama.com/vb

فان الاب قلما يتمكن من أن يبذل ذاته لكل فرد من أبنائه على حدة ، أو لكل زوجة من أزواجه على حدة ، نظرا لكثرة أبنائه وتعدد زوجاته • والواقع أن الاب فى الاسرة القائمة على تعدد الزوجات هو أقرب ما يكون الى شيخ قبيلة يرأس عدة أسر ، ومن ثم فان «الابوة» بمعناها الصحيح تكاد تكون معدومة فى هذا النظام• هذا الى أن تعدد الزوجات يولد بينهن ضربا من الغيرة والحسد ، كما يعمل على انفصال أبناء كل زوجة عن أبناء غيرها من الزوجات • وأما فى الزواج الواحدى فان كلا من الاب والام يضحى بكل شىء فى سبيل العناية بالابناء والعمل على تربيتهم تربية صحيحة •

٣ ـ لا شك أن الزواج الواحدى يخلق بين الزوجين روابط عائلية أقوى بكثير مما نجده فى غيره من أنظمة الزواج • وهكذا تتمتع الاسرة القائمة على هذا النظام بدرجة عليا من الاتحاد : فنرى التعاطف سائدا بين الابوين ، وبين الابناء ووالديهم ، وبين الابناء بعضهم وبعض • هذا الى أن الروابط القانونية والعلاقات الدموية فى هذا النظام أكثر بساطة وأقل تعقدا مما هى فى أى نظام آخر ، ولذلك فان مظاهر الاحتكاك وضروب التشاحن أقل ظهورا فى الزواج الواحدى منها فى أى زواج آخر • والواقع أن أهم ما يميز هذا

www.ibtesama.com/vb

النظام هو ارتفاع درجة « التماسك العائلى » بين أفراده ولهذا فان الاسر الواحدية تعمل بطريق غير مباشر على زيادة الوحدة والتماسك فى الحياة الجمعية نفسها ٠

٤ ـ وربما كان من بعض أفضال النظام الواحدى فى الزواج على الآباء والابناء على حـــد سواء ، أنـه يضمن لكل منهم طول البقاء ٠ والسبب فى ذلك هو أن الآباء الطاعنين فى السن لا يلقون من أبنائهم كل عناية الا فى ظـــل النظام الواحدى ٠ وأما فى ظـل النظام التعددى ، فان الزوجة الطاعنة فى السن سرعان ما تجد نفسها مهجورة وحيدة ، فلا يكون عليها الا أن تقضى بقية أيام حياتها فى صبر وألم ومرارة ٠ هـــذا الى أن الابناء قلما يهتمون بأبيهم ، وذلك لان البيت الـــذى تكثر فيه الزوجات هو بيت لا تسنح فيه الفرصة للابناء بأن يرتبطوا بعاطفة المحبة مع أبيهم ، فضلا عن أن الاب نفسه كثيرا ما يكون كل اهتمامه موجها نحو العنـاية بزوجاته ! وبينما يهتم الابناء فى ظل النظام الواحدى بأبويهم الطاعنين فى السن ، نرى الوالدين فى ظـــل النظام التعددى يقضون شيخوخة كئيبة تكتنفها الوحدة والانقباض !

وهكذا نخلص الى أن « الاسرة المتكاملة » لا بد من أن تكون أسرة متحدة قائمة على نظام الزواج الواحدى ،

www.ibtesama.com/vb

لأن الطابع المميز لهذا النظام هو الثبات أو الاستقرار، وتلك ميزة لابد منهـــا للاتحاد الزوجى حتى يجىء «متكاملا» بكل معنى الكلمة · فلن يكون ثمة «تكامل» فى الاسرة الا اذا كان كل من الزوجين قد بلغ مرحلة من النضج يستطيع معها أن يفهم معنى « الارتباطات » ، وقيمة « الاستقرار » ، وأهمية « الثبات » · وسنرى فيما بعد أن من أهم أسباب الطلاق عدم نضج أحـــد الزوجين (أو كليهما معا) ، وهو ما يترتب عليه تخبط الواحد منهما فى علاقاته الجنسية ، وعدم استطاعته فهم الطابع الحاسم الذى تنطوى عليه الرابطة الزوجية · ولا نرانا فى حاجة الى أن نكرر ما سبق لنـــا قوله من أن الزواج ليس ظاهرة طبيعية تسير من تلقاء نفسها ، وانما هـــو الى حـــد ما مهمة تستلزم تهيئة نفسية وجهدا ارادياً، فلا نجاح لرابطة زوجية تعوزها صفة « الدوام » ، ولا تكامل لاسرة لم يبلغ فيها الزوجان درجة النضج السيكولوجى الذى لابد منه لادراك معنى « الاتحاد » · وما « الاسرة » فى الحقيقة سوى رابطة أبدية تتحدى الزمن ضامنة لنفسها البقاء !

٢٦ ـ والاسرة المتكاملة فى نظرنا لا بد من أن تكون أيضا أسرة ديموقراطية يتقاسم فيها الزوجان الســلطة بتعادل ، مع ملاحظة مبدأ تقسيم العمل · وقد يكون

www.ibtesama.com/vb

من العبث أن نتحدث عن « الواجبات الزوجية » ، فان الاسرة المتكاملة لا تعرف التزامات مفروضة على الزوج والزوجة من الخارج ، كمـــا أنها لا تقيم وزنا لتلك الواجبات الشكلية التى يتحدث عنها علماء الأخـــلاق تحت باب « الاخلاق العائلية » • وحينما يتزوج الرجل بالمرأة التى يحبها والتى يريد أن يقضى معها بقيـــة أيام حياته ، فانه لن يشعر بأن « من واجبه » أن يعولها ويحميها ويشبع حاجتها الجنسية ، بل هـو سيفعل كل هـــذا بدافع من حبه دون أن يقيم وزنا لأى اعتبار آخر • وأما حينما يشعر الرجل بأن أعباء الاسرة تبعات جسام لا بد له من أن ينهض بآدائها ، لأن « واجبه » كزوج وأب يضطره الى تحمل بعض الالتزامات نحو زوجه وأبنائه ، فان حياته الزوجية عندئذ لا بد من أن تكون على وشك الانهيـــار • والواقع أن الزواج الصحيح لا يمكن أن يقوم على مجرد الزام خلقى أو مجرد تسـليم بفكرة « الواجب الزوجى » ، وانمـا يجب أن تكون لحمة الحياة الزوجية وسداها هى « الشـــعور بالمعية » الذى يجعل سلوك الزوجين متناغما ومتوافقا ، دون أن يكون ثمة قسر أو ضغط أو الزام • وهنـــا يكون قيام الزوجين بأداء « واجباتهما الزوجية » ليس وليد الزام خارجى ، بل يكون بمثابة سلوك عـــادى

www.ibtesama.com/vb

تصدر بواعثه بطريقة آلية عن طبيعة الحياة الزوجية نفسها ٠

وليس أمعن فى الخطـــأ من أن يتوهم البعض أن نجـــاح الاسرة رهن بقوة السلطة ، أو بالخوف من السلطة ، وكأن على الزوجة أن تهاب زوجها ، او كأن من مستلزمات السعادة الزوجية أن يشعر الرجـــل بهيبته وسطوته فى المنزل ! والحق أن الاسرة جماعـة يقوم وجودها أولا وبالذات على قوة الاحترام المتبادل وفعـــل العاطفة المشتركة ٠ وحينما تـــكون الاسرة « ديموقراطية » بمعنى الكلمة ، فانها لا بـــد من أن تأخذ بمبدأ « التضحية » المتبادلة ٠ وربما كانت كل قيمة الاسرة باعتبارها مركزا للتربية الاجتماعية انما تنحصر فى طـــابع « التضحية » الذى تتسم به كـل تصرفاتها ٠ وقد يكون من الممكن أن ننمى قدرات الطفل العقلية عن طريق التعليم ، ولكن لا بـــد لتنمية قواه الاخلاقية من توافر بيئة حيـــة يكتسب فيها المثـــل العليا عن طريق القدوة ٠ ومعنى هـــذا أن الاخلاق والـــدين والفن لا تعلم كمـــا يعلم التاريخ والنحو والرياضية ، وانما هى تستلزم وســـطا اجتماعيا أو بيئة عائلية يجد فيها الطفل تلك القيم متجســـدة فى

www.ibtesama.com/vb

شخص والديه (١) · ومن هنـا فان الطفل لا يمكن أن يتعلم معنى « التضحية » الا اذا عاش فى مجتمع عـائلى تشيع فيه روح التضحية · وأما اذا لم يتعلم الابنـاء كيف يتقبلون التضحية فى سبيل المصلحة المشتركة داخل نطاق الاسرة ، فانهم لن يجدوا فيما بعد السبيل الى تعلم هـذا الدرس ، نظرا لان الانظمة الاجتماعية الكبرى هى بطبيعتها شكلية محضة · ولا شك أن أهمية الاسرة باعتبارها نظاما اجتماعيا انما تتمثل على الخصوص فى هـذا « الدور الاخلاقى » الذى يقوم بـه المجتمع العائلى حينما تكون الرابطة التى تجمع بين أفراده هى رابطة المحبة المتبادلة ، والعون المشترك ، والنزوع نحو مثـل أعلى موحد ·

ولن تكون للطفل « أسرة » بمعنى الكلمة الا اذا كان له أبوان متعاونان يصدران فى كل أفعالهما عن روح المشاركة والتآزر · فليس يكفى أن يكون الوالد أبا عاقلا أو حارسا أمينا ، أو أن تكون الام والدة محبة أو مربية ممتازة ، وانما يجب أن تكون أفعال الوالدين شاهدا باتحادهما ، ناطقا بتعاونهما ، حتى تكون ثمة « أسرة »

(١) Cf. Dr. Alexis Carrell : "L'Homme, cet inconnu" Paris, 1941, Plon, pp. 178 — 9.

www.ibtesama.com/vb

حقيقية يحيا الطفل فى كنفها ويطمئن اليها • ولا بد من أن يكون الجو الذى ينشـــأ فيه الطفل جوا عاطفيا دافئا بالحب ، لأن جو الخصام والمشاحنة قلما يلائـم الصحة النفسـية للطفل • وليست الأسرة المتكاملة هى تلك التى تضمن لابنائها أسباب الرعـاية الاقتصادية والاجتماعية والصـحية فحسب ، بـــل هى تلك التى تهيىء لهم الجو النفسى الملائم أيضا • ومن هنا فان مجرد وجود الطفل فى بيت واحد مع والديه لا يعنى دائما أنه يحيا فى «أسرة» أو أنه يلقى العناية الابوية الكافية •

وقد لاحظ بعض علمـاء النفس ان الرعـاية التى يتلقاها الطفل من جانب والديه ، ومن جانب أمـــه على وجه الخصوص ، هى العامل الرئيسى فى تكوين صحته النفسية والعقلية • وليس فى استطاعة أيـــة مؤسسة اجتماعية ، أو أية هيئة تربوية أن تنهض بهذا العبء الهام الذى يقع على عاتق الوالدين ، خصوصـا فى السنوات الخمس الاولى من حيـــاة الطفل • بل ان البعض ليذهب الى حـــد أبعد من ذلك فيقول ان نوع العلاقة التى تنشأ بين الطفل وأمـــه منذ الاشهر الاولى من حياته قد تؤثر تأثيرا عميقا على كل حياته المستقبلة • ولم يعد هناك خلاف بين علماء النفس حول

www.ibtesama.com/vb

تأثير السنة الاولى من حياة الطفل على مستقبل صحته النفسية ، اذ قد أجمع الكل على أن حرمان الطفل من عطف أمه ابتداء من السنة الاولى من حياته لابد من أن يؤثر تأثيرا سيئا على مستقبله • وليس فى استطاعة أية قوة فى الوجود أن تقوم بديلا من عطف الام وحنانها : لأن « الامومة » ليست وظيفة آلية يمكن أن تنهض بها أية هيئة توفر للطفل الغذاء والمأوى ، وانما هى علاقة انسانية حية تغير من السمات الشخصية لكل من الام والطفل • وكما أن الغذاء الشهي ينطوى على شيء أكثر من مجموعة من الفيتامينات والمواد الغذائية الهامة للجسم ، اذ أنه لابد لنا من أن نتذوق الطعام ونستسيغه حتى يكون مفيدا لنا حقا ، فكذلك لا يمكن النظر الى « الامومة » على أنها عدد من الساعات التى تستلزمها رعاية الطفل يوميا ، بل على أنها علاقة مستحبة تتذوق فيها الام محبة الطفل ، وينعم فيها الطفل بعطف الام • ولابد لهذه العلاقة من أن تتصف بطابع « الاستمرار » : فان الاستمرار ليس ضروريا لنمو شخصية الطفل فحسب ، وانما هو ضرورى لنمو شخصية الام أيضا • وكما أن الطفل فى حاجة الى أن يشعر بأنه « ينتمى » الى أمه ، فان الام أيضا هى فى حاجة الى أن تشعر بأنها

www.ibtesama.com/vb

« ملك » لطفلها ، وهى لن تستطيع أن تهب نفسها له فى اخلاص تام ووفاء مطلق الا اذا نعمت بهذا الشعور · ولا شك أن الرعاية المستمرة التى تقدمها الام لطفلها ليـــل نهـار ، (سبعة أيام فى الاسبوع ، و ٣٦٥ يوما سنويا) ليست بالشىء الكثير على أم تجد لذتهـا الكبرى فى أن ترى ابنهـــا يعـدو مرحلة الطفولة ، ويتدرج خلال مراحل الحياة الى أن يصير رجـــلا مستقلا يعتمد على نفسه · فالام تعلم أن طفلها فى حاجة اليها وهى على ثقة من أن رعايتها هى التى تكفل له أسباب النمو والترقى ، ولهـذا فانها تنعم بلـذة الامومة ، وتشعر بأن طفلها هو موضع سعادتها (١) ·

ولكن على الرغم من أهمية الاسرة فى ترقى الطفل ، وعلى الرغم من خطورة الدور الذى تقوم بـه الأم فى رعاية الطفل (حتى لقد قيل انه لمن الافضل للطفل أن تكون له أم سيئة من ألا تكون له أم على الاطلاق) ، فان الاسرة قـــد تتسبب أحيانا فى اعوجاج الطفـــل أو ميله الى الشر والفســاد · وربما كانت أهم الاسباب التى تؤدى الى عجز الاسرة عن القيـــام بمهمتها هى النقص العقلى ، أو ســـوء الحالة المادية للاسرة ، أو

---

(١) John Bowlby : "Child Care and the Growth of Love", Penguin, 1955, pp. 75 — 77.

www.ibtesama.com/vb

ضيق البيت بأفراده الكثيرين ، أو اهمال رب الاسرة لزوجه وأولاده ، أو اصابة أحـــد الوالدين بعاهـة أو مرض مزمن ، أو فشـــل الزوجين فى حياتهمـــا العائلية ، أو انفصال أحـد الزوجين عن الآخر ، أو تحطم الاسرة بسبب الطـــلاق ... الخ . وليس فى استطاعتنا هنـا أن نستقصى أسباب فشـــل الكثير من الأسر (فذلك ما سنعود اليـــه فى الفصل القادم) ، ولـكن حسبنا أن نقول ان تكامل الاسرة رهن بالصحة العقلية التى يتمتع بهـا كل من الزوجين ، كما أنـه يتوقف الى حـــد كبير على نوع العلاقة التى تنشـــأ بينهما وبين أبنائهما منذ البداية . ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن وجود الاطفال فى المجتمع العائلى يلزم الوالدين بمواجهة مشكلات « تكيف » جديدة . وهنـا يكون على الآباء أن يحبوا أبناءهم (على قـدر الامكان) بطريقة موضوعية ، لا بطريقة نرجسية . فليس أمعن فى الخطـــأ من أن ينظر الآباء الى أبنائهم على أنهـم « موضـوعات » يملكونهـا ، أو أجزاء تدخـــل فى صميم وجودهم ، وكأن ليس للابناء شخصيات منفصلة ينبغى احترامها ومنحها أكبر قدر ممكن من الحرية . وبعبـارة أخرى ، ينبغى على الآبـاء أن يفهموا أنهـم يربون أبناءهم لـكى يصيروا يوما شخصيات مستقلة قادرة على الاعتماد على نفسها ، فلا بد لهم بالتالى من

www.ibtesama.com/vb

أن يكفلوا لابنائهم من الحرية ما يسمح لهم بالنمـــو والترقى فى هـــذا السبيل • وهنا تكون «النرجسية» (Narcissism) هى حجر العثرة الذى قـد يصطدم بـه الوالدان فى علاقاتهما نحو أبنائهما ، كما كانت من قبل هى حجر العثرة الـذى اصطدما به فى علاقتهما الواحد بالآخر (١) •

٢٧ ـ والاسرة المتكاملة أيضا هى فى نظر الكثير من علماء الاجتماع خير مدرسة يتلقن فيها الطفـــل فضائل الحياة الجمعية • واذا كان البعض قـد توهم أن فى نمو « الشعور العائلى » تعارضا مع مستلزمات « الحياة الجمعية » ، فان التجربة قد دلتنا على أن الاسر المتحـــدة هى التى أخرجت دائما للمجتمع مواطنـين صالحين يتعلقون بالبلد الذى نشـأوا فيه ودرجوا على حبـه واحترامه • وليس ثمة مكان أفضل من «البيت» يستطيع فيه الطفل أن يتعلم الطاعة والنظام واحترام حقوق الآخرين وانتهاج مسلك اجتماعى سوى • هذا الى أن الأسرة هى بطبيعتها خير بيئة يستطيع فيهـــا الطفل أن يعتاد السلوك الاخلاقى القويم • وقد يكون من نافلة القول أن نقرر أن الاسرة هى المدرســة الأولى

---

(١) W. Brown : "Psychological Methods of Healing", University of London, 1938, p. 160.

www.ibtesama.com/vb

التى تتم فيها الخطوات الاساسية فى تعليم الطفل ، والمراحل الجوهرية من مراحل تربيته • ونحن نعلم جميعا أن الآباء هم أقدر الناس على تعليم أبنائهم مبادىء الصحة الجسمية ، والجنسية ، والنفسية ، والعقلية ، والاجتماعية • ولكن المهم أن « الاسرة » قد تصبح أكبر قوة اجتماعية يمكن أن تؤثر على الفرد ، اذا جعل منها أداة لتنمية « روح التضحية » فى نفس الطفل ، وتعويده الاخلاص والصراحة فى التعامل مع الآخرين • وليس بصحيح أن فى الاخلاص للاسرة تنمية لروح « الانانية العائلية » (Égoisme Familial) (كما زعم البعض) ، بدليل أن أنصار العزوبة الذين قد تحرروا من كل هموم الحياة العائلية لم يبدوا يوما تعلقا زائدا بالمصلحة العامة أو اهتماما غير عادى بالحياة الجمعية •

والحق أن الاسرة هى مهد الشخصية ، ففى رحابها يتعلم الطفل الوحيد كيف يتعامل مع والديه وكيف ينمى شخصيته فى مظاهرها الاولى ، وفى نطاقها أيضا يتعلم الطفل الذى له أخ أو أخت كيف يحترم حقوق الآخرين ، وكيف يتعامل بصراحة معهم فى داخل ذلك المجتمع العائلى الصغير • ولا شك أن الاسرة الكبيرة تتيح للطفل من الصلات الاجتماعية ما قد لا تتيحه له الاسرة الصغيرة (التى ليس فيها

www.ibtesama.com/vb

أطفـــال آخرون) • وعـــلى كل حـــال ، فـــان الاسرة المتكاملة هى تلك التى ينشـأ فيها الطفل على المحبة والتعاون والصراحة ، فلا تكون علاقاته بغيره قائمة على الأثرة والتنافس البغيض والصراع المستديم ، بل تكون قائمة على التضحية المتبادلة والتعاون الدائم والقدرة على الاخذ والعطاء • ولا تقتصر « العـلاقات العائلية » على ما يقدمه الآباء لابنائهم ، بل هى تشمل أيضا ما يقدمه الابناء لآبائهم • وربما كان من بعض أفضال الابناء على آبائهم أنهم يوسعون من رقعة خبرتهم فى الحياة ، ويجعلون لوجودهم معنى وغاية ، ويخلعون على حيـــاتهم خصبا وثراء ، ويزيدون من صـــلاتهم الاجتماعية ومظاهر نشاطهم العائلى ، ويتيحون لهـم الفرصة لان يحيوا من جـــديد فى أشخاص أبنائهم ، ويسمحون لهم بأن يتحكموا فى ترقى الحياة البشرية ، ويمدونهم بالبصيرة اللازمة لفهم سر العمليات الحيوية وادراك المعنى الحقيقى للحياة البشرية (١) •

ولكن الاسرة المتكاملة ليست بالمجتمع المغلق الذى يحيا افراده فى شـبه عزلة ، وانمـــا هى « مجتمـع مفتوح » يؤثر ويتأثر ، ويعطى ويأخذ ، ويزور ويزار •

---

(١) James H. S. Bossard : "The Sociology of Child Development", Harper, 1948, p. 157.

www.ibtesama.com/vb

واذا كان البعض قد حرص على تأكيد أهمية « الضيف » أو « الزائر » فى الحياة العائلية ، فذلك لأنه لابد للاسرة من « تهوية اجتماعية » تسمح لها بأن تجدد جو الحياة العائلية والواقع أن الزائرين قد يجلبون للاسرة بعض المبادىء الاجتماعية الجديدة ، أو قد يكونون مناسبة لتلقين الطفل بعض مبادىء السلوك الاجتماعى ، أو قد يساهمون فى توسيع آفاق المعتقدات والعادات لدى الطفل ، أو قد يسمحون للابناء بأن يهتدوا الى معيار للحكم على والديهم ، أو قد يتيحون لهم الفرصة لان يقفوا على مدى توافق القول والفعل عند والديهم ·· الخ · هذا الى أن استقبال ضيف هام فى المنزل قد يكون سببا فى ادخال بعض التعديلات على نظام الحياة العادية للاسرة ، أو احداث بعض التغييرات المؤقتة فى عادات البيت ونوع وجبات الطعام فيه وما الى ذلك ··· ولكن من الواجب على الاسرة أن تدقق فى اختيار زائريها والمترددين عليها ، فليس « البيت » مقهى لاستقبال أى شخص كائنا من كان ، وانما يجب أن تراعى بعض الشروط فى اختيار الاصدقاء والمعارف والزائرين · وحبذا لو تذكر الاب دائما أن للبيت حرمته ، وأن دخول شخص غريب الى بيته معناه أنه أهل

www.ibtesama.com/vb

لأن يكون صديقا يوثق به ، أو قريبا يطمأن اليه · وان هـــذه القاعدة لتصبح أوجب وألزم حينما يكون فى البيت أطفال صغار يأخذون عن المحيطين بهم ويحاكون المترددين عليهم ، فيصبح من الضرورى للوالدين أن يدققا فى اختيار أصدقائهما ومعارفهما وزائريهما ·

وثمـــة ظواهر أخرى بسيطة تتردد فى الحيـــاة العائلية ، ولكنها تحوى من المعانى ما يجدر الاشـــارة اليه : فمن ذلك مثلا اجتماع الاسرة كلها حول مائـدة واحدة ، واشتراك الجميع فى ألعاب تسلية واحدة ، واحتفال الاسرة بأعياد ميـــلاد أفرادها ·· الخ · وللحديث العائلى الذى يدور حول المائدة دور كبير فى الحياة العائلية ، لأنـه يتيح لافراد الاسرة جميعـــا فرصة الاشتراك فى حديث واحـــد ، فيضع كل منهم نفســه موضـــع الشخص المتحـدث ، ويشترك كـل منهـــم فى ابـــداء رأيـــه والتعبيـــر عـــن نفســـه ، وهو ما قد يتسبب فى حـــدوث ضرب من « التقمص الوجدانى » بين أفراد الاسرة بعضهم وبعض هـذا الى أن حديث المائدة قـد يساهم فى تنمية بعض سمات الشخصية : اذ يكتسب كل فرد من أفراد الاسرة شيئا من « الخبرة » حينما يعبر عن نفســـه فى هـذا الوسط الاجتماعى · وليس المقصود باجتماع الاسرة

www.ibtesama.com/vb

حول مائدة واحدة مجرد الاشتراك فى تناول طعـــام واحد ، بـــل المقصود هو زيادة شـــعور الاسرة بالاتحاد وتنمية روحها العائلية من خلال الحديث المشترك • وقد يكون حديث المائدة أحيانا ذا صبغة ثقافية حينما يتيح لكل فرد فرصة التعبير عن أفكاره ، ونقل ثمرة تجاربه الى الآخرين ، فيستفيد أفراد الاسرة جميعـــا من تلك الخبرات المشتركة ، كما يزيدون من احتكاكهم بالعالم الخارجى (١) •

واذا صح ما يقوله بعض علمـــاء الاجتماع من أن الاسرة كنظام اجتماعى قد تطورت فى اتجاه رئيسى : فبعد أن كانت مجرد « نظام » (Institution) أصبحت « جماعة تعاونية » ، فربما كان فى وســـعنا أن نقول ان الاسرة المتكاملة هى تلك التى يتعاون كل أفرادهـــا بطريقة ديموقراطية فى عالم واحد مشترك • وليس أمعن فى الخطأ من أن يتصور البعض الاسرة على أنهـــا مجرد « جماعة نفعية » تجمع بين أفرادها رابطة المصلحة المشتركة ، فان ما يربط بين أفراد الاسرة الواحدة هو كما قلنـــا مرارا اتحاد المشـــاعر والمصـــالح ، والنزوع نحو مثـــل أعلى موحد • وما كان الانحلال المشـــاهد

---

(١) Cf. J. H. S. Bossard : "The Sociology of Child Development", 1948, p. 171.

www.ibtesama.com/vb

حاليا فى بعض المجتمعات العائلية سوى مجرد تعبير عن ضعف تلك « الرابطة الروحية » التى ينبغى أن تضم كل أفراد الاسرة الواحدة • هـذا الى أن بعض المجتمعات الاوروبية والامريكية : خصوصا على أعقاب الحرب الاخيرة ، قد شهد انهيارا كبيرا فى نظـــام « الاسرة » نتيجة لتعقد أسباب المعيشة ، وكفر الناس بالكثير من القيم ، وضعف المعنى الـــدينى للـــزواج باعتباره نظاما مقدســـا ، ونزوع بعض المجتمعات الى التخفيف من قيود الطلاق ، وانحلال سلطة الابوين فى داخل نظام الاسرة ، وانفصال الابناء عن والديهم فى سن مبكرة مما يعسر معـــه الاحتفـــاظ بالتماسك العائلى ، وعدم توافر النضج النفسى والاستعداد العقلى اللازمين للاقبال على الزواج •• الخ • وكل هـــذه الاسباب قـــد عملت بلا شك على تناقص عدد « الاسر المتكاملة » ، فأصبح من النـــادر اليـوم فى كثير من المجتمعات الحديثة ان نسمع عن أزواج سعداء وأسر ناجحة ، وكأن « الســـعادة » حديث خرافة ، أو كأن النجاح فى الزواج ظاهرة غير عادية • وسنحاول فيما يلى أن نلم ببعض أسباب هـــذه الحالة ، مع الاهتمام بصفة خاصة بالحديث عن مظاهر انهيار الاسرة •

ى :

www.ibtesama.com/vb

الفصـــل الســادس

مشــكلة الطـلاق

٢٨ ـ على الرغم من أن حوادث الطلاق قـد تعددت بشكل ظاهر فى المجتمعات الحديثة ، فان ظاهرة الطلاق ليست بدعة اجتماعية لم تعرفها سوى العصور الحديثة، وانما هى ظـاهرة اجتماعيـة عرفت فى كثير من المجتمعات القديمة حيث كان الزواج لا يتخذ صـورة عقد حاسم لا رجعة فيه ، بل صورة اتفاق مؤقت يمكن العدول عنه • وقد اختلفت أسباب الطلاق فى هـذه المجتمعات ، فكانت الزوجة فى بلاد الغال تطلق زوجها لمجرد أن حلقه سيىء الرائحة ، بينما اشترط القانون الصينى للطلاق بعض الشروط مثـل العقم أو العاهة المستديمة أو الخيانة أو عدم توافق المزاج ، أو عـدم احترام أحد الزوجين لاقارب الآخر •• الخ • والسببان الرئيسيان اللذان قـد أجمعت معظم الشرائع على اعتبارهما ذريعتين قويتين للطلاق هما العقم والزنا • وان الطلاق ليبدو فى نظر الفرد حقـا مشروعا : فان الخطأ الذى يرتكبه المرء فى اختياره للشريك الآخر

www.ibtesama.com/vb

لا ينبغى أن يكون سببا فى تعاسته الى الابد ، وانما يحق له أن يتدارك خطأه ، بدلا من أن يستمر فى تحمل نتيجة فعل لم يكن على علم مقدما بما سيترتب عليه • ولكن المجتمع قلما يأخذ بهذه الحجة : فان من مصلحته أن يحترم الزوجان هذا العقد ، نظرا لأن نتائجه تعدو الطرفين المتعاقدين وتمتد الى الابناء • وهكذا نرى فى بعض المجتمعات أن الدولة والسلطة الدينية تزوجان أى رجل بأية امرأة ، دون أن تحفل بمعرفة ماضى حياتهما وما عسى أن يترتب على زواجهما من نتائج ، ولكن بمجرد ما يتم هذا الزواج فان الابواب سرعان ما توصد فى وجه المتعاقدين ، فلا يصبح فى وسعهما الانفصال بهذه السهولة ! واذا كان من واجب السلطات فى كل المجتمعات أن تزيد من صعوبة الطلاق، فذلك لمصلحة الابناء من جهة ، ولكى تلزم الراغبين فى الزواج بأن ينعموا النظر ويدققوا فى الاختيار من جهة أخرى • وقد يكون من السهل بطبيعة الحال أن يتمتع المرء بمباهج بلد غريب رحل اليه مع احتفاظه بتذكرة العودة فى جيبه ، ولكن الامر لابد من أن يكون مختلفا كل الاختلاف اذا عرف المرء أنه قد هاجر الى ذلك البلد للتوطن المستديم ، وأن طريق العودة مغلق

www.ibtesama.com/vb

أمامه (١) !

بيد أن بعض المجتمعات الحديثة قد أبت أن تعترف للزواج بهذا الطابع النهائى الحاسم ، فورد فى القانون الروسى الذى ظهر سنة ١٩٢٦ فى الاتحاد السوفيتى ما يفيد أن الطلاق حق مطلق للفرد ، وأن فى استطاعة اى طرف من الطرفين المتعاقدين أن يحصل عليه بمجرد تقديمه لطلب يرفعه الى المحكمة يعرب فيه عن رغبته فى حـــل رابطة الزوجية • ومعنى هـذا ان الطلاق فى قانون سنة ١٩٢٦ كان أيسر من الزواج : اذ بينما كان الزواج يستلزم ارادة كل من المتعاقدين ، نجد أن الطلاق لم يكن يقتضى سوى ارادة أحـــد المتعاقدين • وهكذا كان الطلاق فى روسيا اذ ذاك أيسر من الزواج! ولـكن روسيا نفسها سرعان ما فطنت الى الاخطـــار الاجتماعية التى ترتبت على هذا النظام ، خصوصا وأن نسبة حالات الطلاق فى ســـنة ١٩٣٥ قد بلغت حوالى ٤٤٪ من عدد الزيجات المعقودة فعلا ، فلم يلبث المشرع الروسى أن عمـد الى تضييق دائرة الطـلاق فى تشريع جديد ظهر سنة ١٩٣٦ • ثم ظهر قانون جديد (على أثر انتهاء الحرب العالمية الاخيرة) فى ٨ يوليه ســـنة

---

(١) Oswald Schwarz : "Psychology of Sex.", Ch. X, "On Marriage", pp. 242 — 244.

www.ibtesama.com/vb

١٩٤٤ • كان الغرض الاساسى منه هو حماية الاسرة السوفيتية والعمل على تدعيم أسس الزواج • وهكذا صدرت الاوامر الى المحاكم بالتدقيق الشديد فى نظر طلبات الطلاق ، وعدم الموافقة على حـــل الاسرة الا فى الحالات القصوى • ولاشك أن المجتمع الروسى قـد كان (منذ الثورة الروسية سنة ١٩١٧ حتى يومنـــا هــذا) بمثابة حقل تجارب اجتماعية ، فلم تجيء رجعة المشرع الروسى الى الاعتراف بأهمية النظام العائلى سوى نتيجة لتجارب متعاقبة مر بها المجتمع السوفيتى نفسه ، فاستطاع من خلالها أن يدرك ضرورة العمل على تضييق دائرة الطلاق ، وزيادة احترام الافراد لنظام الاسرة (١)

أما فى الولايات المتحدة فقد بلغت حوادث الطلاق نسبة لا نظير لها فى أى بلد من بلاد العالم : ففى سنة ١٩٠٦ كان عدد حوادث الطلاق فى أمريكا وحـــدها يزيد عن عدد حوادث الطلاق فى سائر بلاد العـــالم الاخرى بنحو ٢٠٫٠٠٠ حادثة طلاق ! وأما فى البلاد الاوروبية فقد كانت هناك حالة طلاق واحدة لكل ثلاثين زواجا تعقده الكنيسة فى فرنسا ، وحالة طلاق واحدة لكل ٤٤ زواجا يتم فى ألمانيا ، وحالة طلاق واحدة لكل ٤٠٠

---

(١) Cf. G. Le Bras : La famille en U.R.S.S. : dans "Connaissance de l'U.R.S.S.", No. 2, 1947.

www.ibtesama.com/vb

عقد زواج فى انجلترا ، بينما بلغت النسبة فى الولايات المتحدة ١ الى ١٢ ، و ١ الى ٦ أو ٥ فى بعض المدن الامريكية ثم أجريت احصائيات أخرى جديدة فى سنة ١٩١٦ فتبين أن هناك ست ولايات أمريكية زادت فيها حالات الطلاق فى احدى السنين عن حالات الزواج ! وهكذا كانت نسبة الطلاق فى ولاية نفادا (Nevada) الى نسبة الزواج كنسبة ١ الى ١ر٥٤ ، وفى ولاية انديانا (Indiana) كنسبة ١ الى ٥ر٩٤ . ولكن دلالة مثل هذه الاحصائيات محدودة : لأن الناس فى أمريكا كثيرا ما يهاجرون الى مدينة رينو (Reno) (بولاية نفادا) حتى يحصلوا على الطلاق فى ظرف عدة أسابيع ، ثم يعودون بعد ذلك الى ولاياتهم الاصلية . ولهذا فان نسبة الطلاق تزيد فى تلك الولاية عن نسبة الزواج ، فى حين أن أهل الولاية أنفسهم قد لا يكونون مولعين بالطلاق كما قد نتوهم لاول وهلة . وفى سنة ١٩٢١ لوحظ أن عدد حالات الطلاق لم يتناقص ، بل لقد بلغت نسبة الطلاق فى الولايات المتحدة ككل حوالى ١ الى ٩ (حالات زواج) ، وبذلك فاقت أمريكا بلاد اليابان وضربت الرقم القياسى فى كثرة حالات الطلاق بها ! وفى سنة ١٩٣٠ بلغت نسبة الطلاق الى نسبة الزواج حوالى ١ الى ٥ر٩ . ثم جاءت

www.ibtesama.com/vb

الحرب العالمية الثانية ، فارتفعت نسبة الزواج والطلاق معا ، وزادت فى الوقت نفسه نسبة عدد المواليد • وأثبتت الاحصائيات فى سنة ١٩٤٦ أن نسبة الطلاق فى الولايات المتحدة قد بلغت أكثر من ١ الى ٤ (حالات زواج) (١) • ولكن ربما كان من الخطأ أن نقيس نسبة حوادث الطلاق بنسبة حالات الزواج فى سنة واحدة بعينها ، اذ قد تكون حالات الطلاق مرتبطة بزيجات قديمة (تمت فى سنوات أخرى) • ومعنى هذا أن قياس نسبة الطلاق ينبغى أن يكون بالنسبة الى عدد المتزوجين جميعا ، لا بالنسبة الى عدد الزيجات التى تمت فى العام الذى يجرى فيه الاحصاء فقط •

ولكن المشاهد بصفة عامة أن حوادث الطلاق قد تضاعفت بشكل خطير منذ النصف الثانى من القرن الماضى ، حتى فى بعض البلاد المحافظة مثل انجلترا • ففى سنة ١٩١٤ كان عدد حوادث الطلاق فى انجلترا ٨٥٦ ، وفى سنة ١٩٢١ ارتفع الى ٣٫٥٢٢ ، ثم بلغ حوالى ٤٠٠٠ فى عام ١٩٢٨ ، ولم يلبث هذا الرقم أن قفز الى ٣٥٫٨٧٤ حالة طلاق فى عام ١٩٤٦ ! وليس لدينا احصائيات يقينية عن نسب الطلاق فى بلاد الشرق

---

(١) Cf. National Office of Vital Statistics, Washington, D. C., October 24, 1947.

www.ibtesama.com/vb

العربى ، ولكننا نعرف أن هـذه الظاهرة الاجتماعية منتشرة على نطاق واسع فى معظم البلاد العربية التى تسير قوانينها المدنية على الشريعة الاسلامية • وقـد لوحظ أن نسبة حالات الطلاق آخذة فى التزايد عندنا فى مصر ، خصوصا فى المـدن والمراكز الصناعية • والمعروف بصفة عامة أن نسبة حوادث الطلاق تقـل دائما فى القرى والبلاد الريفية عنها فى المدن والمراكز الصناعية ، كما أنه كلما زاد حظ الريف من التمدين ارتفعت نسبة الطلاق فيه • وهنـاك عوامل أخرى تؤثر فى ارتفاع نسبة الطلاق أو انخفاضها مثـل العامل الدينى ، ومـدى كبر حجم الاسرة •• الخ • فنسبة الطلاق مثـلا تزيد بصفة عامة عند المسلمين ، بينما هى أقل عند الكاثوليك ، ويليهم الاسرائيليون، ثم البروتستانت • وهى فى الحضارة الغربية قـد تزيد بشـكل ظاهر لدى الاشخاص الذين لا ينتمون الى أى دين • ولا ريب أن السر فى ذلك يرجع الى أن المتدينين يرون فى الزواج رابطة مقدسة أو سرا الهيا ، بينما ينظر اليه اللادينيون على أنه مجرد عقد تتحكم فيـه العاطفة الشخصية ، ففى الامكان فضـه اذا دعت الضرورة أو اذا انتفت أسباب قيامه • وأما فيما يتعلق بحجم الاسرة فقد لوحظ أن نسـبة الطلاق قـد تبلغ

www.ibtesama.com/vb

الضعف أو أربعة أمثالها عنـــد الاسر التى لم تنجب أطفالا عنها لـــدى الاسر الكبيرة التى تضم أطفـالا عديدين • وتفسير ذلك واضح : فان الاسرة الكبيرة تزيد من الروابط الاجتماعية التى توحد بين الزوجين فتمنعهما من التفكير فى الطلاق • ولكن هـذا لا يعنى أن وجود الطفـــل في الاسرة هو خير عاصم لهـا من الانحلال (كما قد يتوهم البعض) ، بـل الملاحظ أنه حينما تتزايد أعبـاء الرجل ، خصوصا حينما يزيد أطفاله عن الحد الذى يمكن معه احتمال تبعات الاسرة ، فقد يعمد الى هجر زوجه فى اللحظة التى تكون فيهـا على وشك الوضع !

٢٩ ـ وليس فى استطاعتنا بطبيعة الحال ـ فى مثـل هـذا الكتيب الصغير ـ أن نعرض لدراسة مشكلة الطلاق في شتى جوانبها النفسية والاخلاقية والقانونية والدينية ، ولـكن حسبنا أن نستعرض تأثير الطلاق على الاسرة ، محاولين فى الوقت نفســه أن نـــلم بالجوانب السيكولوجية التى ينطوى عليها هذا السلوك• وهنا نجد أن كثيرا من رجال الاجتماع قد ذهب الى أن الطلاق « مرض اجتماعى » خطير ، وأن على الحكومات أن تعمل على استئصال شأفته عن طريق سن القوانين والتشريعات المختلفة ، بينما دعـا آخرون الى تحريم

www.ibtesama.com/vb

الطلاق أو منعه بتاتا حتى يضمن المجتمع سلامة نظامه العائلى وعدم تشتت أبنائه • والواقع أن مشكلة الطلاق هى واحدة من تلك المشكلات الاجتماعية الخطيرة التى قد يعسر فيها التوفيق بين رغبة الفرد فى الحرية وحرص المجتمع على الاستقرار • وقد أظهرتنا الدراسة الدقيقة لاسباب الطلاق فى المجتمعات المختلفة على أن الطلاق مظهر لتلك الحياة الزوجية التى ينعدم فيها التكيف أكثر مما هو عرض لداء خطير يلزم أن تتدخل الدولة نفسها لعلاجه بسطوة القانون • ولكن من المؤكد أنه حينما ينظر الرجل والمرأة الى الزواج على أنه مجرد عقد مدنى يمكن التحلل منه فى أية لحظة، فان هذه النظرة ـ كما قلنا مرارا ـ قد تكون مسئولة الى حد ما عن تعرض مثل هذا الزواج للانهيار فى سرعة وسهولة • وقد لوحظ بالفعل أنه كلما أصبح الطلاق ميسورا ، زاد استهتار الناس بالزواج كنظام اجتماعى ، وبالتالى زادت حوادث الطلاق • ومن هنا فان تزايد حوادث الطلاق فى أمريكا انما يرجع الى تخفيف القيود الزوجية وتيسير أسباب الطلاق ، فضلا عن تزايد معرفة الناس بالقوانين المتعلقة بالطلاق حتى قبل اقدامهم على الزواج (١) !

---

(١) Cf. Emory. S. Bogardus : "Sociology", Macmillan, 1955, Ch. II., pp. 79 — 85.

www.ibtesama.com/vb

ولا تتولد فكرة « الطلاق » لدى الزوجين أو لدى أحدهما فجأة ، وانما تسبق هـــذه المرحلة عدة خطوات تمهيدية يجيء بعدها الطلاق كحل نهائى لا مفر منه • ومعنى هـــذا أن الطـــلاق مظهر لتفاقم الخلاف بين الزوجين الى الحد الذى يمتنع معه كل توافق ، فـــلا يكون ثمة سبيل الى التراضى ، ولا يكون هناك مجـال للعودة الى حياة « التكيف » • وكثيرا ما تكون المرحلة الاولى من مراحل الخلاف الزوجى مرتبطة بمســـائل جنسية : اذ قـد لا يكون ثمة توافق بين الطرفين من حيث شدة الحافز الجنسى أو طريقة اشباعه أو عـــدد مرات الجماع أو ما الى ذلك ، ومثل هـذا الاختلاف قـد يخلق بين الطرفين جـــوا من التوتر الوجـدانى والصراع النفسى ، فلا يكون فى استطاعة الواحـــد منهما أن يتحمل الآخر • وكثيرا ما تأخذ الزوجة على زوجها أنه لا يعاملها برقة ، ولا يقترب اليها بلطف ، بل يتخذ منها أداة لمتعته ووسيلة لارضاء شهوته ، دون أن يكترث بعاطفتها أو حالتها الوجدانية • وليس من النادر أن يكون الخلاف الجنسى بين الزوجين ناشئا عن جهـل الزوج بطبيعة المرأة ، أو عدم اهتمامه باشباع حاجتها الى العطف والرقة • وسرعان ما يستشرى الداء بين الزوجين ، فيمتد الخلاف من دائرة الجنس والحياة

www.ibtesama.com/vb

العاطفية الى مظـاهر أخرى أكثر أهميـــة فى صميم الحياة العائلية • وقد يكون الخلاف بين الزوجين تافها أول الامر ، ولكنه حينما يرتبط بموضوعات عديدة ، فان خطره قد يتزايد ، كمـــا أن تأثيره على التماسك العائلى قد يتضاعف • وهنـا قـد يصرح أحـد الطرفين بأنه لا يبقى على وحدة الزواج الا فى سبيل الابنـــاء ، واـكن سرعان ما تتفاقم أسباب الخلاف ، فلا يعود أحد الزوجين ، (أو كلاهما معا) يجد مبررا للابقاء على رابطة لا تجلب له سوى الهم والتعس والشقاء !

وهكذا تظهر فكرة الطلاق فى ذهن أحـد الطرفين باعتباره السبيل الاوحد لحل الخلاف المستحكم بينـــه وبين الطرف الآخر • وقـد تكون هذه الفكرة قـــد ظلت كامنـــة فى ذهن الزوج أو الزوجـــة أشهرا أو سنوات ، ولكن بمجرد ما يعرب عنها أحـــد الطرفين صراحـــة ، فان الصراع الزوجى لا يلبث أن يجتـاز مرحلة خطيرة من مراحل تطوره • ومنذ تلك اللحظة ، يصبح الطلاق امكانية تتردد على لسان كل من الزوجين أو أحدهما على الاقل • وقـد يسبب التفوه بهذه الكلمة للمرة الاولى صدمة نفسية لدى الطرف الآخر ، أو قـد يؤدى الى ازدياد حـــدة الصراع القائم بين الطرفين ، أو قد يفضى الى بعض محاولات سطحية من أجل التراضى

www.ibtesama.com/vb

وتهدئة الموقف • وفى بعض الحالات، قد تتردد كلمة « الطلاق » على لسان أحد الزوجين مئات المرات دون أن يتخذ أى اجراء بقصد تنفيذ هـــذا الوعد بالفعل•

بيد أن النطق بكلمة « الطلاق » لا يلبث أن يتسبب فى ازدياد التصدع العائلى ، فتتعدد مظاهر الصراع بين الزوجين ، ويبدو لكل منهما بوضوح أنه لم يعد فى استطاعته أن يحيا مع الطرف الآخر فى ظل جو قاتم من الكراهية والمشاحنة والخلاف الدائم • وهنـا يتخذ الالتجاء الى الطلاق صورة العزم والتصميم ، فيقر القرار على اتخاذ تلك الخطوة الحاسمة من أجـل القضاء على التوتر النفسى الذى يخيم على الاسرة • ـ ثم يجىء بعد ذلك التصرف الفعلى ، كأن تحزم الزوجة أمتعتها عازمة على التوجه الى آلها ، أو كأن يخرج الرجـــل من البيت على ألا يعود اليه ، فيسود المنزل جو عاصف من التوتر العاطفى ، وترين على الحياة العائلية أشـــباح الحزن والكآبة • ولكن بينما نجد أن أعصاب أحـــد الطرفين (خصوصا الزوجة) فى مثل هذا الموقف قـد تنهار انهيارا كاملا فيتخذ الهجر صورة مأساة تشـــبه الى حد كبير مآسى المسرح أو السينما ، نجد أن انفصال الزوجين قـد يتم أحيانا (خصوصا فى بعض البـــلاد الأوروبية والامريكية) فى جو من البرود المصطنع أو

www.ibtesama.com/vb

عدم الاكتراث المفتعل ، فيغادر أحدهما الآخر دون أى وداع انفعالى عنيف ! ثم هنـاك أخيرا قضية الطلاق نفسها ، وهـذه قـد تطول أو تقصر ، وقـد يترتب عليها أحيانا التشهير بسمعة الزوج أو الزوجة ، ولكنها فى معظم الاحيـان لابـد من أن تقترن بالكثير من المشـكلات المتعلقة بالنفقة وتربية الاولاد ومؤخـر الصداق وشتى التسويات المادية ٠٠ الخ ٠ وهـكذا يتم الطلاق بعد فترة عصيبة من الصراع الحاد والتوتر النفسى العنيف (١) ٠

٣٠ ـ فاذا مـا نظرنا الآن الى تأثير الطلاق على الزوجين ، وجدنا أن الفترة التى تعقبه لابد من أن تتخذ صورة « أزمة نفسية » يجتازها المطلق بمفرده ، ويجد فيها نفسه مضطرا الى أن يواجه مشكلات جديدة لعل أهمها مشكلة اعادة التكيف مع ما استجد من ظروف بعد الطلاق ٠ وهنا يكون على المطلق أن يحقق ضربا من التوافق أو التكيف مع ظروف معيشته الجديدة ، وفى مقدمها حياته العاطفية ، وعاداته اليومية الجديدة ، وضرورة تنظيم صلات اجتماعية جديدة ٠٠ الخ ٠ وقد يكون على المطلق أن يعمـل على استرجاع احترامه

(١) Cf. K. Young : "Personality and Problems of Adjustment", 2d., ed., 1952, p. 505.

www.ibtesama.com/vb

لنفسه ، أو أن يتحمل الآثار المترتبة على الطلاق فى دائرة عمله أو مسئولياته الوظيفية ، كما قد يكون عليه بصفة خاصة أن يعمل على حل ضروب الصراع الباطنة المتولدة فى نفسه ، وأن يجتهد فى تحقيق ضرب من الاتزان العاطفى المقترن باشباع بعض النوازع الذاتية ٠

وربما كانت أهم مشكلة تواجه المطلق فى قوة والحاح هى ضرورة اعادة تنظيم حياته العاطفية فى ضوء الموقف الجديد ٠ وغالبا ما تكون العلاقات الجنسية بين الزوجين المتنازعين قد انقطعت منذ زمن طويل قبل الطلاق ، (أو هى على الاقل لابد من أن تكون قد أصبحت علاقات سيئة لا تحقق أى اشباع جنسى لكل من الطرفين) ، وهذه الحالة نفسها هى التى تسبب فى ازدياد الصراع النفسى القائم بينهما طوال الفترة السابقة على الطلاق ٠ وبمجرد ما يتم الطلاق شرعيا ، فان المطلق سرعان ما يلتجىء الى أساليب منحرفة فى الاشباع الجنسى ، كأن يلتجىء الى العشق الذاتى "Autoeroricism" أو كأن ينصرف الى حياة بوهيمية لا رادع فيها ولا وازع ، أو كأن يعمد الى الانتقام من الطرف الآخر بأن يكون علاقات غرامية مع أكبر عدد ممكن من أفراد الجنس الآخر ٠ وقد يحدث

www.ibtesama.com/vb

الطلاق ، كأن يكون الزوج قد تعرف بامـــرأة أخرى أحيانا أن تكون الصلات الغرامية قـد بدأت قـــبل استولى حبها على مجامع قلبه ، فيكون الطلاق عندئذ بمثـــابة اعتراف بالـــواقع ، ووضـــع حـــد لمهزلة « الوفاء المتصنع » • وحينما يكون كل من الزوجين قد اتجه بعاطفته ـ قبل الطلاق ـ نحو شخص اخر ، فان الطلاق عندئذ لا يتخذ طابع المأساة ، بـــل يكون مقدمة لزواج جديد !

وقد لوحظ أن المرأة المطلقة كثيرا ما تحتاج فى الفترة التالية لازمة الطلاق الى وقت تسترجع فيـــه ثقتها بنفسها ، وتعالج نفسها فيه من الشعور بالاثم والنقص والاحتقار الذاتى • وقد يزيد شعور المطلقة بالاضطهاد الذى وقع عليها من قبل زوجها ، فنراها تزيد من كراهيتها له وحقدها عليه ، حتى لقد يصل بهـــا الحقد الى درجة كراهيـــة جميع الرجـــال فى شخص زوجها ! وكثيرا ما تحض المطلقة بناتهـــا على النفور من الرجـــال ، بدعـــوى أنهم ذئاب كاسرة ، فتصرفهن عن التفكير فى الزواج أو الخروج فى صحبة الرجال • وتجد المطلقة نفسها مضطرة الى صد الكثير من الرجال ، ممن يقبلون عليها فى الحاح وصفاقة ، آملين اشباع حاجاتهم الجنسية عنـــدها ، لمجرد أنهم

www.ibtesama.com/vb

يعلمون أنها قد أصبحت حرة لا تخضع لاى رجل • ولكن المشاهد فى العادة أن المرأة المطلقة تلتجىء الى والديها أو أهلها تلتمس عندهم المسكن والمأكل ، ولو أن هـذا المسلك كثيرا ما يزيد من شعورها بنقصـها وفشلها فى الحياة • وقد يحدث أحيانا أن تلتمس المطلقة منفذا لآلامها العاطفية فى الشراب أو القمار أو المرض العصبى أو أى مخرج رمزى آخر تتحرر عن طريقه من الكبت الوجدانى الواقع عليها •

ولابد لكل من المطلق أو المطلقة من أن يصـطدم بالصعوبات الناشئة عن ضرورة اكتساب عادات جديدة: فالمطلق (مثلا) قـد يجد من الصعب أن يعتـاد حياة العزوبة التى لا تخلو من سـأم ووحدة ، والمطلقة قـد تشعر بخواء البيت بعد أن خلفها الرجل وحيـدة ليس من يحنو عليها • وفى بعض الحالات قـد يشعر كل منهما بالحرمان الجنسى ، خصوصا حينما يـكون الزوجان قـد ألفا بعض العادات الجنسية لمـدة طـويلة ، فيجد الرجل نفسـه مدفوعا البحث عن زوجته السابقة ، وقـد تتم بينهما بعض الاتصـالات الجنسية حتى بعد الطلاق ! ولا شك أن الوحدة التى تعقب الطلاق هى المسئولة فى كثير من الاحيان عن عودة الرجل الى زوجته السابقة (أو العكس) ، على

www.ibtesama.com/vb

الرغم من كل الصعوبات التى قد تكتنف طريق العودة • ولكن حتى اذا استمر كل منهما فى موقفه ، فان شعوره بالتحرر من « الزوجية » قد يكون متصورا أكثر مما هو حقيقى • وآية ذلك أن الزوجة قد تجد نفسها مدفوعة الى الحديث عن زوجها السابق ، وبيتها القديم ، والمناسبات المختلفة التى مرت بها خلال حياتها الزوجية ، وهذا الحديث نفسه (حتى اذا اقترن بالنقد والذم ، أو اتخذ صورة عدائية) ، انما يدل على استمرار المطلقة فى الاهتمام بزوجها السابق ، على الرغم من الانحلال الشرعى لكل رابطة زوجية بينهما •

كذلك قد يجد المطلق نفسه مضطرا الى تكوين صداقات جديدة ، والتخلى عن صداقات أخرى قديمة وربما كان الشعور بالاثم هو الذى يحول بين المطلق أحيانا وبين التردد على أصدقائه القدامى ، اذ يخيل اليه أن هؤلاء لا يوافقونه على المسلك الذى اتخذه ، أو أنهم سيبادرون الى لومه والتثريب عليه ، ولذلك فانه قد يؤثر البحث عن أصدقاء جدد • وحتى فى المجتمعات الحديثة التى يسودها جو من الحرية أو التحرر ، فان الزوجين المطلقين قد يجدان حرجا شديدا فى أن يترددا على الاوساط الاجتماعية العادية التى كانا يختلفان اليها قبل الطلاق • هذا الى أن

www.ibtesama.com/vb

المطلقة قد تضطر أحيانا الى البحث عن عمل ، نظرا لسوء حالتها المالية بعد الطلاق ، أو لرغبتها فى تركيز كل همها فى نشاط جديد يبعدها عن التفكير فى الماضى فتجد نفسها بازاء مواقف جديدة عليها أن تتكيف معها على الوجه المرضى • وفى بعض المجتمعات الاوروبية والامريكية ، قد يضطر الرجل نفسه بعد الطلاق الى البحث عن مهنة جديدة ، نظرا لان طبيعة عمله الحالى (خصوصا اذا كان مدرسا أو رجل دين) لا تتلاءم مع حالته الاجتماعية باعتباره « مطلقا » • وأخيرا لابد للمطلق (أو المطلقة) من أن يعمل على اعادة تنظيم حياته الباطنة ، بحيث يجد السبيل الى حل شتى ضروب الصراع (Conflict) التى تعتور نفسه • ومعنى هذا أن على الشخص المطلق أن يجتهد فى الوصول الى درجة من « التكامل » يستطيع معها أن يتكيف مع ما استجد حوله من ظروف • وربما كانت أصعب ضرورة أو أعسر مهمة تقع على عاتق المطلق فى حياته الجديدة هى مواجهة الثورة النفسية القائمة فى باطنه أو حل مشكلات الصراع النفسى التى تولدت عن تجربته الفاشلة • ومعنى هذا أن مشكلة الطلاق ترتبط ارتباطا وثيقا بمشكلة « اعادة التكيف » (Readjustment)

www.ibtesama.com/vb

٣١ ـ أما اذا أنعمنا النظر فى الآثار المترتبة على الطلاق بالنسبة الى الابناء ، فاننا نجد أن أبناء المطلقين كثيرا ما يجتازون تجربة أليمة حينما يجدون أنفسهم فى وسط « بيت محطم » أو « أسرة مفككة » • بيد أن آراء الباحثين قد اختلفت حول مدى تأثير الطلاق على حياة الابناء ، فرأى قوم منهم أن فى الطلاق تحطيما تاما للمجتمع العائلى ، بينما ذهب آخرون الى أن معيشة الطفل فى وسط أسرة غاب منها عميدها قد تكون أحيانا أهون شرا من الحياة فى وسط أسرة لا يكف فيها الوالدان عن الخصام والتشاحن والعدوان• والواقع أن الاطفال الذين ينشأون فى بيئة مليئة بالشقاق والنزاع والصراع كثيرا ما يكتسبون مزاجا عصبيا حادا ، وعقلية مشتتة ، وعاطفة موزعة ، وفوضى عقلية •• الخ • وقد يكون من الافضل لمثل هؤلاء الاطفال أن يعزلوا عن تلك البيئة المتوترة ، اما بوضعهم فى مدرسة داخلية أو بفصل أحد الوالدين عن الآخر • ولكن البعض يعترض على هذا الرأى بقوله انه مهما كان من أمر التنافر القائم بين الوالدين،

---

(١) Cf. Willard Waller : "The Oold Love and the New : Divorce and Readjustment", New-York, Liveright Publishing Corporation, 1930, p. 15 — 18.

www.ibtesama.com/vb

فانه لمن الافضـــل بكثير أن تظل الاسرة قائمـــة ، لأن الاطفال فى حاجة دائما الى ســـند عاطفى ورعـــاية فعالة من قبل الام والاب مجتمعين • هـذا الى أن الاسرة بطبيعتها مجتمع صغير فيـــه من الاحتكاك والتعاون مثـــل مـــا فى المجتمع الكبير ، فمن الطبيعى أن يكون فيها خلاف فى الرأى وتنازع حول الكثير من المسائل ، (كما أن فيها تعاونا ومحبة ، أو على الاقل مجرد محاولات من أجـــل تسوية المسائل بالتفاهم والمناقشـــة) • وبعبارة أخرى ، فان الصراع كالحب هـــو مظهر من مظـــاهر التعامل العائلى •• وازاء هـــذين الرأيين المتعارضين ، قـــد يكون من الصعب أن نجد حـــلا نهائيا نقنع به فى جميع الحالات ، اذ أنه قـــد يكون من المستحيل أن نجد مبدأ عاما يصدق فى كل الاحوال• ولكننا نميل الى الاعتقاد بأنه لا يمكن لاية هيئة خيرية أو منظمة جمعية أن تعوض الطفل حنان الام وعطف الاب ، خصوصا فى السنوات الخمس الاولى من حياته ، كما سبق لنا القول فى مناسبات عديدة من قبل •

ولكن لنفرض أن الطلاق قـد تم بالفعل ، فمـــا هـــو أثر هـذا الحادث على الابناء ؟ هنـا يقـــول البعض أن طلاق الوالدين يتخذ فى نظر الابناء صورة أزمة خطيرة ، بينما يذهب البعض الآخر الى أن الطلاق قـد يضع حـدا لموقف عائلى غير محتمل ، فلا يلبث

www.ibtesama.com/vb

الابناء أن يصبحوا أسعد وأهدأ بعد افتراق أحد الزوجين عن الآخر • أما اذا تزوج الوالد المطلق (أو الام المطلقة) للمرة الثانية ، فان من المؤكد أن هذا الزواج الجديد لابد من أن يعقد المشكلة بالنسبة الى الابناء ، اذ أنه سيضطرهم الى أن يحاولوا « التكيف » مع الزوجة الجديدة (أو الزوج الجديد) • ومهما يكن من شيء ،فان موقف الطفل من حادثة طلاق أبويه يتوقف على عوامل كثيرة ، لعل أهمها تكوينه النفسي ، وردود أفعال آله وأقربائه نحوه ، وبعض الظروف المحيطة به (من مادية وخلافه) التي قد تكون خارجة عن ارادته وارادة أقربائه أيضا • وليس من السهل أن نقطع بما لسن الطفل من تأثير على موقفه من طلاق أبويه ، ولكن البعض يذهب الى أن الطفل الصغير قد لا يفطن (على الاقل الى حين) لما يقوم بين الابوين من صراع ، بينما يؤدى الطلاق حتما لدى المراهق الى شعور حاد بالنقص ، وصراع نفسي عنيف يمس عاطفة ولائه نحو والديه ، واحساس قوى بالخزى والعار أمام الناس • ولا شك أن هذا كله انما يتوقف على حالة الاسرة الاجتماعية ، ونوع المعايير الاخلاقية السائدة فى المجتمع • وقد لاحظ بعض الباحثين أنه حينما يجيء الطلاق فى وقت يكون فيه الأبناء فى المدارس العليا أو الثانوية ، فان هذا

www.ibtesama.com/vb

الحدث لابد من أن يسبب أزمة خطيرة فى حياتهم • ولكن تغير نظرة بعض المجتمعات الى الطلاق قد أثر على ارجاع الطفل أو المراهق نحو هذا الموقف ، فلم يعد أبناء المطلقين يواجهون مثل هذه المشكلات العاطفية الخطيرة التى طالما تحدث عنها علماء النفس • وهكذا أصبح البعض يميل الى القول بأن المشكلات التى يلقاها أبناء المطلقين قد لا تختلف كثيرا عن المشكلات التى يلقاها غيرهم من الاطفال فى الاسر العادية •حقاً ان درجة التوتر لابد من أن تكون أكبر لدى أبناء المطلقين ، ولكن مشكلة العلاقة بين الطفل ووالديه موجودة فى كلتا الحالتين • ومع ذلك ، فان أحدا لا يستطيع أن ينكر أن النمو العاطفى للطفل يقتضى ضربا من الاستقرار فى المجتمع العائلى الذى يعيش فيه ، ومن ثم فان أى تصدع يصيب هذا المجتمع لابد من أن تتردد أصداؤه فى الحياة العاطفية للطفل (١) • وقد تتغير نظرة الرأى العام الى مشكلة الطلاق ، فيضمن المجتمع للطفل عدم التعرض لذلك الاحتقار الناشىء عن موقفه العائلى الخاص ، وبالتالى فانه قد يجنبه الكثير من المشكلات العاطفية الناجمة عن طلاق أبويه ، ولكن

---

(١) K. Davis : "Children of divorced parents ; in "Law and Contemporary Problems", Duke University Law School, 1944 (quoted by K. Young, op. cit., pp. 508 — 509.

www.ibtesama.com/vb

ما دام قد كتب على الطفـــل أن يبقى فى حاجـــة الى الطمأنينة الابوية والاستقرار العائلى ، فستظل مشكلة طلاق الابوين تجربة نفسية عسيرة لابد من أن يمر بها. وليس من شك فى أن مجرد اختلاف حالة الاسرة ماديا وعاطفيا بعد الطلاق لابد من أن يولـــد بعض الآثار النفسية لدى الطفل . حتى اذا تغيرت نظرة المجتمع الى الطلاق فلم يعد ثمة حرج على المطلقين (٢) .

٣٢ ـ أما فيما يتعلق بمشكلة زواج المطلقين ، فقد ذهب كثير من الباحثين الى أن الشخص المطلق قلما ينجح فى تجربته الجديدة (أى زواجه الثانى) نظرا لعـدم قدرته على التكيف . وقد تساءلت احدى السيدات يوما عن السر فى فشلها المستمر فى الزواج فقالت : « لست أدرى لمـاذا يلاحقنى الحظ التعس دائما أبدا ، فلا يقع اختيارى الا على الشخص الذى لايصلح لى ؟ ! » ورد علماء النفس على هـــذا التساؤل أنه نظرا لخطأ أسلوبها فى الحياة ، فان هـــذه السيدة تجد نفسها مضطرة الى أن تكرر باستمرار خطـــأ واحدا بعينه . وهـكذا نجد أن المرأة التى تريد أن « تؤكد » نفسها سرعان ما يقع اختيارها على رجـــل ضعيف تجـــد فيـه ضالتها المنشودة ، فاذا ما شقيت فى حياتها معه وأرادت أن تتخير رجلا آخر لم تلبث أن تجد مخلوقا

(١) المرجع السابق .

www.ibtesama.com/vb

عاجزا يحقق حبها للسيطرة ، فلا يكون زواجها الثانى سوى ترديد لخطأها السابق ! والمرأة التى تبحث أولا وبالذات عن رجل غنى ، قد تتزوج رجلا بعد آخر فلا تكون حياتها سوى فشل يتلوه فشل ، لأنها لم تنشد الشخصية التى ترتاح اليها بل الثراء الذى تطمع فيه • والرجل الذى يسول له غروره أن يقترن بامرأة تفوقه فى الذكاء أو العلم أو المركز الاجتماعى ، لابد من أن يكرر التجربة مرارا قبل أن يجتنى من وراء فشله درسا أليما قاسيا • وفى كل تلك الحالات ، كثيرا ما يوالى المطلق (أو المطلقة) تجاربه الأليمة ، دون أن ينجح فى الوصول الى سر فشله المتكرر • وليس أدل على انتشار ظاهرة زواج المطلقين فى بلد مثل أمريكا من أن نسبة عدد الزيجات الثانية قد بلغت سنة ١٩٤٨ حوالى ١٣٪ من مجموع حالات الزواج • ومعنى هذا أن فشل الامريكى فى تجربته الاولى قلما يمنعه من أن يحاول القيام بتجربة أخرى • ويظهر (فيما يزعم بعض الباحثين) أن هذه المحاولة الجديدة لا تبوء دائما بالفشل ، بدليل أن ٧٧٪ من الاشخاص المطلقين الذين تزوجوا للمرة الثانية قد قرروا ـ فى استخبار قام به أحد الباحثين ـ أنهم « سعداء » أو « سعداء جدا » فى زواجهم الجديد ! وقد استنتج الباحث

www.ibtesama.com/vb

المشار اليه من هـــذا الاستخبار أن احتمال نجـــاح المطلقين فى زواجهم الثانى يكاد يكون مضمونا • ثم جـــاء آخرون فقامـــوا ببحوث أكثر دقة وأوســـع مجالا ، وتوصلوا من هـــذه البحوث الى أن احتمـــال نجاح النســـاء المطلقات فى زواجهن الثانى لا يقـــل عن احتمال نجاح النســـاء اللائى يتزوجن للمـــرة الأولى ، وأما احتمال نجاح الرجال المطلقين فى زواجهم الثانى فانه أدنى بكثير من احتمال نجاح الرجال الذين لم يسبق لهم الزواج من قبـــل • ولكننـــا نميل الى التحرز فى قبول مثـــل هـــذه النتائج ، فقد علمتنـــا التجربة أن السعادة نسبية ، وأن الشخص المطلق الذى يتزوج للمرة الثانية قد « يتوهم » أنه سعيد أو أنـــه أسعد منه فى زواجه الأول فضلا عن أن البعض قـــد يأبى أن يعترف على نفسه بأنه فشل للمرة الثانية •• الخ • حقـــا ان من الاشخاص من يستفيد من تجاربه السابقة ، أو من قـــد يصل الى النجاح بعد أدوار من « المحاولة والخطأ » ، ولكن حينما يكون فشل الشخص فى زواجه الاول راجعـــا الى خطأ كامن فى « أسلوب حياته » (Style of Life) فان من المحتمل أن يستمر فى فشله مكررا دائما نفس الخطأ ، كما سبق لنا القول •

وعلى كل حـــال ، فان من واجب الشخص المطلق

www.ibtesama.com/vb

الذى يتزوج للمرة الثانية أن يراعى بعض القواعد ، ومن أهمها تجنب الاشـــارة الى الزوجـــة السابقة ، خصوصا حينما يتولـــد ضرب من النزاع بينه وبـين الزوجة الجديدة • فليس أخطر عـلى هـــذا الزواج الجديد من أن يلتجىء الزوج الى عقـــد مقارنات بين الزوجة الثانية والزوجة الاولى ، حتى ولو كانت تلك المقارنات فى مصلحة الزوجة الجديدة • والمشـــاهد عادة أن الزمن يتكفل بلأم الجروح ، فلا يلبث الزوج أن يتصور زوجته السابقة بصورة مثالية ، خصوصـــا حينما يجد نفســـه بازاء مواقف غير سارة فى زواجه الجديد • ولهـذا فان الزوجة الثانية قلما ترتاح الى حديث الزوج عن تجاربه السابقة ، وانما هى قـــد تجد فى تلك الاشارة تنغيصا مستمرا لها • هـذا الى أن الزواج الجديد قـد يؤدى الى قطع بعض العلاقات مـــع أشخاص يرتبطون بالزوجة السابقة ، فلا بـــد للزوج من أن يعمل على تكوين صداقات جديدة يسـد بهـــا الفراغ الذى خلفه فقدان الاصدقاء القدامى • وثمة مشكلة أخرى هامة لابد للزوج (أو الزوجة) من العمل على مواجهتها باحتراس فى مثـل هـذا النوع من الزواج ، وتلك هى مشكلة أبناء الزوجـــة (أو الزوج) من الفراش الاول • والواقع أن التفرقة فى

www.ibtesama.com/vb

معاملة أبناء الزوج الثانى وأبناء الزوجة (أو الزوج) السابقين قد تولد الكثير من المتاعب فى حياة الزوجين • ولا يمكن أن تصبح الاسرة متكاملة حقا الا اذا اجتهد كل من الزوج والزوجة فى القضاء على كل فوارق فى المعاملة بين الاثنين حتى يصبح جميع الابناء على قدم المساواة • وأخيرا لما كان الطلاق غير مرغوب فيه بالنسبة الى الاشخاص الذين يشغلون بعض الوظائف فى كثير من المجتمعات ، فقد يحسن بالمطلق ان يعمد الى تغيير محل اقامته بعد الزواج الجديد ، أو اذا لزم الامر ، قد يجد نفسه مضطرا الى تغيير عمله نفسه ، حرصا على مصلحة هذا الزواج الجديد (١) •

وصفوة القول أن مشكلة الطلاق هى من أعقد المشكلات النفسية والاجتماعية فى حياة الاسرة لانها تمس الزوجين والابناء والمجتمع نفسه • وليس من السهل أن نقترح علاجا فعالا لحل هذه المشكلة ، فاننا نعلم أن الوقاية (فى هذا الصدد كما هو الحال فى كل مجال آخر) هى خير ألف مرة من العلاج • وكثيرا ما يكون من الصعب بالنسبة الى زواج قام منذ البداية على اختيار سيىء أن يجد المرء سبيلا الى التوفيق

(١) Cf. H. Locke : "Predicting Adjustment in Marriage", New-York, Holt, 1951.

بين الزوجين أو العثور على حـــل وسط يرتضـيه كل من الطرفين • هـذا الى أن الطلاق قد يكون في بعض الاحيان أهون شرا من ذلك الجو المتوتر التاتم الذى يحيا فيه موجودان فقدا كل أسباب التوافق ، فلم يعـد الواحد منهما يـــكن للآخر سوى الكراهية والحقـــد والعداء • حقـــا ان من مصلحة المجتمع ألا نجعـــل الطلاق أمرا سهلا ، ولكننا قـد نصطدم بحالات لا نملك بازائها سوى أن نعترف بضرورة الطلاق لأن الرابطـة الزوجية لم تقم بين الطرفين فى يوم ما من الايام • واذا كان من المؤكد أن كل زواج لا يدوم هو بالضرورة زواج شـــاذ ، فان من غير المعقول أن نجعل من هـذا الشذوذ قاعدة نقيم عليها أسس الحيـــاة الزوجية • وهكذا نعود فنقول انه لا سبيل الى تقوية دعائم الاسرة الا اذا فهم الشباب قدسية الزواج ، وسمو الرابطـة العائلية ، وضرورة التفرقة بين العلاقة الغراميـــة العابرة والصلة الزوجية الدائمة •

www.ibtesama.com/vb

الفصل السابع

توجيهات عملية

قد ينتظر منا القارىء ـ بعد هذا العرض السريع لبعض مشكلات الحياة الزوجية ـ أن نمده بنصائح عملية يمكن أن يستفيد بها فى مواجهة مصاعب الزواج وتبعات الاسرة ، أو بتوجيهات مثمرة يمكن أن يستعين بها على تحقيق التوافق الزوجى والاهتداء الى سبيل السعادة العائلية • ونحن لا نرى حرجا فى أن نختتم هذا المؤلف ببعض الارشادات العامة التى قد تعين القارىء على استجماع بعض المبادىء السيكولوجية الهامة التى وردت فى تضاعيف هذه الدراسة ، ولكننا نخشى أن نضع بين يدى القارىء توجيهات مثالية قد لا تصلح الا لطائفة معينة من الافراد ، ممن تزيد نسبة ذكائهم عن ١٨٠ ، أو ارشادات عسيرة قد لا تتلاءم الا مع أصحاب المثل العليا ممن تلقوا تربية أخلاقية على قدر كبير من السمو• وقد فطن الى هذه الحقيقة بعض علماء النفس ، فآلى على نفسه ألا يحكم على هذا السلوك أو ذاك بأنه طبيعى أو غير طبيعى ، أو أنه سوى أو غير سوى ، وذهب الى أنه قد يكون من خطل

www.ibtesama.com/vb

الرأى أن نقدم للقراء نصائح خيالية لم تقم على دراسة شاملة لشتى البيئات وكافة المجتمعات مع المقارنة بين مختلف الفئات والطبقات (١) • بيد أنه ربما كان فى استطاعتنا أن نتجنب هذا المأخذ لو أننا عمدنا الى وضع الخطوط العامة للحياة الزوجية السليمة ، على ضوء دراستنا السابقة لمشكلات التكيف والصراع الزوجى ، مع الاقتصار على تقديم أقل قدر ممكن من النصائح ، وعدم الانسياق الى الحديث عن الزواج المثالى أو الحياة الزوجية الكاملة • وسيرى القارىء من خلال توجيهاتنا القليلة (فى هذا الفصل) أننا لا نخاطب انسانا مثاليا أو موجودات خيالية ، بل نحن نوجه الحديث الى أناس من لحم ودم ، ونسوق النصيحة الى أشخاص عاديين لهم ماضيهم وخبرتهم ونقائصهم ومظاهر ضعفهم •• الخ •

أما وقد وضعنا بين يدى القارىء هذا التحذير ، حتى لا يحكم على نفسه بمعيار قد لا تكون له عليه يدان ، فلنعمد الى تقديم توجيهاتنا العملية فى كلمات أو بعض كلمات ، ولنذكر القارىء مرة أخرى بأننا لسنا موجهى ضمير ، بل نحن سالكون مثله عبر هذا

(١) Cf. H. J. Eysenck : "Uses and Abuses of Psychology", London, Penguin, 1955, p. 139.

www.ibtesama.com/vb

الطريق الشاق العسير ، وكلنا أمل فى أن نعفر جبهتنا يوما عند أعتـــاب ذلك الاله المجهول : « اله الحب » ، ايروس العظيم الذى يستطيع وحده أن يهبنا السعادة !

* * *

ـ ونصيحتي الاولى اليك يا صديقى القارىء ألا تتزوج فى سن مبكرة جدا • حقـــا ان الزواج ظاهرة طبيعية يمكن أن يقبل عليها الرجـــل فى أية مرحلة من مراحل حياته ، ولـكن الزواج أيضـــا مهمة نفسية واجتماعية لا يستطيع أن ينهض بها الا من بلغ سن النضج النفسى والعقلى ، فأصبح فى استطاعته ان يفهم معنى الثبات والاستقرار ، أو من تلقى من الاستعداد العقلى والتهيئة الجسمية ما يستطيع معه أن يواجـــه تبعات الحياة الزوجية بوعى وتبصر وحسن تصرف •

ـ ان البعض لينصحك أحيانا بأن تتزوج للتخلص من متاعبك الجنسية وهمومك العاطفية ، ولكن حذار من أن تتوهم أن « الزواج » هو العلاج الوحيد لـــكل أمراضك النفسية أو أنه الحل الناجع لشتى مشاكلك الشخصية • ان الزواج ليس دواء للاعراض العصابية ، أو هو ليس علاجا للأمراض النفسية ، فلا تظن أنـــه سوف يجىء لك بالسعادة الخالصة والراحة القصوى ، بل تذكر أن للزواج مشكلاته التى تتطلب الحـــل ،

www.ibtesama.com/vb

ومصاعبه التى تستلزم قدرا غير قليل من النضج . فليست الحياة الزوجية فردوسا أرضيا تحفه الورود ، بل هى طريق وعر قد لا يخلو من أشواك ! .

ـ ومع ذلك ، يا صديقى القارىء ، فاننا لا ندعوك الى التهيب من الزواج أو التهرب من المسئولية ، لأننا نعلم أنه ليس أدعى الى الفشل فى الزواج من الاقدام عليه بروح التردد والخوف والجزع من المستقبل ! فلنتعلم اذن أن الحياة الزوجية ـ شأنها شأن كل تجربة تعرض للانسان ـ هى مهمة تقترن بالكثير من مظاهر المحاولة والخطأ ، ولكنها ليست بالمهمة العسيرة التى لا يستطيع أن ينهض بها الا الراسخون فى علم النفس ، أو العارفون بأسرار فن الحب ! ولنتذكر دائما أن الخوف من الزواج هو المسئول فى معظم الاحيان عما قد يصيب الرجال من ضعف جنسى . والواقع أن الرجل يشعر فى قرارة نفسه بأن « الاتصال الجنسى » ليس مجرد « رمز » للزواج ، وانما هو الزواج نفسه فى صورة مصغرة ، ومن هنا فان عجزه الجنسى انما هو الدليل القاطع على أنه يخشى حتى رمز الزواج نفسه ! ولعل هذا هو السبب فى أن بعض الرجال قد لا يقع الا فى حب نساء متزوجات ، وكأنما هو بذلك يريد أن يضمن لنفسه مقدما عواقب تجربة الزواج ، ما دام

www.ibtesama.com/vb

سبيل الاتصال الجنسى مغلقا أمامه فى مثل هـذه الاحوال !

ـ لا تسرف فى الخيال ، ولا تستسلم لاحلام اليقظة ، بل حاول دائما أن تواجه الواقع كما هو ، واجتهد باستمرار فى أن تمزج العاطفة بالعقل • حقا أن أحلام الشباب جميلة ، وخيالات السعادة براقة ، ولكن الشاب الذى يترك العنان لاحلامه وخيالاته ، سرعان ما يصطدم بالحقيقة الاليمة المرة ، فلا يلبث أن يصاب بخيبة أمل شديدة حينما يتحقق من أنه لم يكن يحيا فى دنيا الناس ، ولم يكن يرى من الحياة الا أطيافها !

ـ كن واقعيا فى حبك : فلا تحاول أن تخدع نفسك ابان الخطبة بأن توهم نفسك (أو تودم من تحب) بأنك تطرب فعلا للمقطوعة الموسيقية التى يطرب لها ، أو أنك على استعداد فعلا للتخلى عن أسلوب حياتك الماضية لكى تبدأ معه حياة جديدة ، أو أنك تشاركه حقا اعجابه بالحياة الريفية وميله الى العزلة •• الخ • تذكر أن كثيرا من الزيجات قد تحطمت فوق صخرة الفشل بسبب هذا الخداع اللاشعورى : فانك لتضلل نفسك وتضلل شريكة حياتك المقبلة بمثل هذه الوعود الكاذبة التى لن تلبث الحياة

www.ibtesama.com/vb

المشتركة أن تكشف عن استحالتها • حقـا ان انعدام الامانة فى مذ هذه الاحوال قد يـكون لاشـعوريا أو بحسن نية ، ولكن من المؤكد أن الشخصية الناضجة الواعية قلما تسمح لنفسها بأن تستسلم لعملية خداع النفس أو تضليل الذات •

ــ لا تظن أن الهوى الجامح العنيف هـو الشرط الضرورى لكل زواج ناجح سعيد : فان التجربة قـد دلتنا على أن ١٪ من الزيجات الرومانتيكية هى تلك التى ينجح فيها كل من الزوج والزوجة ، بعد انقضاء ثلاث سنوات من زواجهما ، فى أن يحتفظ لشريكه الآخر بمثل هـذا الهوى الجامح العنيف • حقا ان الحب قد ينمو ويترعرع بعد الزواج ، ولكن عمر الهوى الرومانتيكى هو فى العادة قصير ! يقول أرنولد بنيت (A. Bennet) ان الغرام العنيف ليستحيل فى ٣٣٪ من الحالات ، بعد مرور ثلاثة أعوام على الزواج ، الى تعاطف هادىء ، وهو فى ٥٠٪ من الحالات ، قـد يتحول الى شعور بعدم الاكتراث ، فتصبح الرابطة الزوجية بمثابة عـادة من العادات ، ثم هو فى ١٦٪ من الحالات ، قد ينقلب الى بغضاء أو كراهية (١) • وسواء قبلنا هذه النسب ،

---

(١) Cf. R. V. C. Bodley : "In search of Serenity", London, R. Hale, 1954, p. 107.

www.ibtesama.com/vb

أم أدخلنا عليها شيئا من التعديل ، فاننـا لن نستطيع أن ننكر أن جوهر الزواج ليس هـو الهوى الجامح أو الغرام العنيف ، بـل هو الشعور بالمعية الذى يثبت الحب حول موضوع واحد ، فيخلع عليه طابع الثبـات والاستمرار • ولا شك أن الرابطة الزوجية هى التى تقدس الحب وتعمل على دعم أواصره ، لأنها تجعـل من الوفاء قوة خلاقة تجدد نفسها بنفسها ، فتتجه أمانة الزوجين نحو (الزواج) نفسه باعتباره نظاما اجتماعيا مقدسا •

ـ اعلم أن النجاح فى الزواج ينطوى على شىء أكثر من مجرد العثور على الشخص الصالح أو الشريك الملائم، لأنه يقتضى أيضا أن تكون أنت نفسك شخصا صالحا أو شريكا ملائما ! وليس أيسر من أن نتهم الزواج بأنه نظام فاشل ، ولـــكن اذا عرفنا أن الناس هم الذين يفشلون ـ لا الزواج نفسه ـ تبين لنا أن كل ما هنالك هو أن الفاشلين فى حياتهم الزوجية هم الذين يحقدون على الزواج لانه الضوء الساطع الذى تسلطه الحياة على الشخصية ، فتكشف عن عيوبها أمـــام الملأ ، وتظهر نقائصها فى وضح النهار ! والواقع أن الزواج كثيرا ما يكون مناسبة لاظهار نقائص الناس أو وسيلة لكشف عن مظاهر ضعفهم ، فلا تتهم زوجك بالغلظة أو القسوة

www.ibtesama.com/vb

أو سوء النية أن هي اكتشفت فيك عيوبا لم تخطر لك على بال ، ولا تحمل على نظام الزواج لمجرد أن زوجتك لم تستحسن بعض تصرفاتك ، بل اجتهد دائما في أن ترى نفسك من خلال منظار شريكة حياتك ، وحاول أن تأخذ بتوجيهات المرأة التي ارتضيتها لك زوجا ، حتى تحل بعض مشاكلك النفسية ، وتصبح راجح الرأي ناضج الشخصية • وليكن شعارك دائما أن الحياة الزوجية السعيدة هي تلك التي تقوم على ادراك الشخص لمزايا شريكه وعيوبه ، مع قبوله في الوقت نفسه لتلك العيوب باعتبارها جزءا من مقومات شخصية الشريك الذي اختاره لنفسه •

ـ لا تنتظر أن يجيء الحب منذ بداية حياتك الزوجية حبا ناضجا مكتملا : فان الجانب الحسي من الحياة الزوجية ـ وخاصة بالنسبة الى المرأة ـ هو في حاجة الى تهيئة طويلة وتربية دقيقة • ولتذكر أن عليك أنت أيها الزوج انما يقع العبء الاكبر من هذه التربية ، حتى يتهيأ لزوجك أن تستكمل نموها الجنسي (١) • ولا بد في هذا الصدد من مزج الحافز الجنسي بعواطف الرفق واللطف ، مع مراعاة ما لعامل

---

(١) « سيكولوجية الجنس » للدكتور يوسف مراد ، دار المعارف سنة ١٩٥٤ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

www.ibtesama.com/vb

الزمن من أهمية قصوى فى تحقيق الانسجام المنشود بين الطرفين ، حتى يتسنى للحب أن ينمو ويترعرع فى كنف حياة زوجية متكاملة . واعلم أن زواجا بلا حافز جنسى ليس زواجا مثاليا أو أفلاطونيا أو زواجا طاهرا ، وانما هو ليس بزواج على الاطلاق ! حقـــا ان العلاقات الجنسية ليست سوى مظهر حسى للاتحاد الشخصى الذى يتم بين الزوجين ، ولكنها فى بعض الاحيان قد تكون سببا فى دعم أواصر الزوجية أو تقوية أسباب الاتحاد بين الزوجين حينما تكون بعض عوامل الضعف قـــد أخذت تدب فى أوصال الرابطة الزوجية .

ـ كن واقعيا منذ مستهل حياتك الزوجية : لا تتوقع أن يتحقق الاتحاد بينك وبين شريكة حياتك منذ البداية أو دفعة واحدة ، بل ضع فى ذهنك أن التوافق العاطفى يستلزم اجتياز مرحلة ـ طالت أو قصرت ـ من « المحاولة والخطأ » . وليست العبرة هنـا بأن تتحاشى كل تجربة ، أو أن تنـأى بنفسك عن كل ما قد يعرضك للخطـأ ، بل المهم أن تستفيد من تجاربك السابقة وألا تكرر دائما أخطاء واحدة بعينها . هـذا الى أنه لابد من الرغبة الصادقة فى التفاهم ، والعمل المستمر على تحقيق التوافق ، مع أخذ النفس بأسباب الصبر والاناة والمثابرة : فان هذه كلها ضرورية لتذليل عقبات الحياة

www.ibtesama.com/vb

الزوجيـة ، وخلق الجـو المـلائم لنمو روح التعاطف والمشاركة والتعاون ·

ـ حاول دائما أن تكيف سلوكك بما يتفق مـع سلوك شريكك ، فان من المستحيل أن يتم التوافق بينكما ان لم يتنازل كل منكما عن بعض أنماطـه السلوكية القديمة ، حتى تتلاقيا في منتصف الطريق · واذا كان بعض الأزواج يصر منذ البداية على الاحتفاظ بكل عاداته القديمة فانه بذلك انمـا يعلن أنـه ليس على استعداد لان يحيا حيـاة زوجية سعيدة تكون دعامتها التعاون المتبادل والتفاهم المشـترك · وليتذكر كل منكم أن الزواج السعيد انما ينمو في جـو من الثقـه والحرية والاحترام المتبادل ، فليس أخطر على السعادة الزوجية من أن يحيا الزوجان في جو قاتم من الريبة المستمرة والتشكك الدائب ، أو في محيط خانق من الضغط المتوالي والقسر الدائم · واذا كانت الثقة لاتولد الا الثقـة ، فان الريبة أيضـا لا يمكن أن تولـد الا الريبة (١) !

ـ لتنظر دائما الى زوجك على أنها شخصية واقعية لا موجود مثالي : فان أخطر ما يواجه الحياة الزوجية في

---

(١) « سيكولوجية الجنس » للدكتور يوسف مراد ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٤ ، ص ١٠١ ، ١٠٢

www.ibtesama.com/vb

بدايتها أن يسقط القناع عن الشخص المحبوب فيبدو على صورته الحقيقية ، بعد أن كان الطرف الآخر قد جعل منه ملكا طاهرا أو كائنا مثاليا ! ولتعمد دائما الى تقبل شخصية شريكك فى الحياة على ما هى عليه دون أن تتطلب منها أن تكون صورة طبق الاصل من شخصيتك ! حقا اننا جميعا نرى فى التشابه بين الزوجين مظهرا من مظاهر الاتحاد ، ولـــكن الشخص الذى يريد لزوجـه أن تكون على شاكلته فى كل شىء ، انما هو شخص لم ينضج بعد نفسيا ، بدليل أنه كالطفل لا يستطيع أن يحب شخصا آخر غير نفسه (١) !

ـ تذكر أنه ليس أفعل من « اللباقة » فى تحقيق السعادة الزوجية : انها السحر الذى يسمح لك بأن تنفذ الى أعماق شريكك فى كل لحظة ، فتقول الكلمة المناسبة فى الوقت المناسب ، وتتصرف على النحو المرضى فى كل مناسبة ، وتتجنب أسباب الخطأ ودواعى الاصطدام فى كل صغيرة وكبيرة • والزوج اللبق الذى يعرف كيف يلبس لكل حـــال لبوسها هو أقرب الأزواج جميعا الى أعتاب السعادة : فان اللباقة لتحقق فى الحياة الزوجية

---

(١) «سيكولوجية الجنس» للدكتور يوسف مراد ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٤ ، الفصل الثالث ، ص ٨٦ ـ ٨٧ • ، وانظر أيضا كتاب « مدخل علم النفس » للدكتور محمد خليفة بركات ، مكتبة مصر ، سنة ١٩٥٦ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ •

www.ibtesama.com/vb

ما لا يحققه الجمال أو المال ، لأنها الكفيلة بأن تضمن للزوجين الصفاء والسكينة وهدوء البال • ولما كانت السعادة الزوجية ليست منحة بل كسبا ، فانه لابد لضمان هذا الكسب من تضافر كل من الزوج والزوجة في سعي حثيث من أجل العمل على تحقيق أسباب التكيف ، وتجنب دواعي الصراع ، وزيادة عوامل التوافق •

ـ كن على حذر من خطرين جسيمين يتهددان باستمرار كل سعادة زوجية : النقد اللاذع المتواصل والغيرة الحاسدة المتشككة : فالزوج الذي لا هم له سوى البحث عن نقائص زوجه ، والاجتهاد في اظهار معايبها أمام الناس ، والعمل على ابراز مظاهر ضعفها في مناسبة وفي غير مناسبة ، انما هو زوج أحمق يهدم عشه بيده ! والزوجة التي لا هم لها سوى تعقب حركات زوجها ، وتتبع أخباره ، والتشكك في كل تصرفاته ، والغيرة من كل معارفه وأصدقائه ، انما هي زوجة حمقاء تدفع بزوجها الى الخيانة ، دون أن تعلم أنها هي المدانة ! فروح النقد وروح الغيرة هما السمان الخبيثان اللذان طالما عملا على تفتيت أوصال الاسرة وتحطيم دعائم السعادة الزوجية •

ـ تجنب ما استطعت الحديث عن « الماضي » :

www.ibtesama.com/vb

فان كل اشارة الى صلاتك السابقة أو حياتك الغرامية الماضية هى بمثابة ضربة قاضية توجهها الى صميم حياتك الزوجية • وليس من اللباقة فى شىء أن تقارن فى كل مناسبة بين زوجتك وزوجة صديقك أو جارك أو قريبك ••• الخ • واذا كنت قد تزوجت للمرة الثانية فلا تذكر زوجتك الجديدة بأن لها نظيرة تفوقها أو تفضلها • واعلم أنك أنت نفسك لن ترتاح كثيرا لمنطق المقارنة لو أن زوجك اتخذت منه سلاحا ماضيا تواجهك به فى كل لحظة !

ـ لا تركز كل اهتمامك فى مهنتك ، مهملا زوجتك كل الاهمال ، ولا تركزى كل اهتمامك فى أطفالك ، مهملة زوجك كل الاهمال : فان هـــذا المسلك قد يجعل زوجتك تغار من عملك ، أو قد يجعل زوجك يغـــار من أطفالك • ولكن ليهب كل منكما نفسه للآخر دون قيد أو شرط ، ولتكن حياتكما الزوجية قائمـــة على الاخذ والعطاء •

ـ كن اجتماعيا ، حتى بعد زواجك ، فانه لمن الخطأ أن يحيا الزوجان فى عزلة أو شبه عزلة • ان أحـــدا لا ينكر عليك حقك فى أن تختلى بزوجك وأن تستمتع معها بعذوبة الحياة المشتركة ، ولكن لا تنس أنه لابد لكل حيـــاة زوجية من قليل من « التهوية » ! ومع ذلك

www.ibtesama.com/vb

فاننا لا ندعوك الى التهاون فى اختيار أصدقائك ، بل نحن ننصحك بأن تدقق فى انتقـــاء أصحابك ، وألا تسمح لاحد كائنامن كان أن يفسد عليك حيـــاتك الزوجية ٠

ـ حارب فى نفسك كل ميل الى الاستسلام للهـم والقلق ، ولا تسمح لنفسك بأن تبدو أمـام زوجـك بمظهر الرجل الضعيف الـــذى لا يقوى على تحمـــل المسئولية ٠ وحبذا لو حرصت على مواجهة مشكلاتك الزوجية بروح الصبر والاناة ، دون أن تردد على مسمع من زوجك أنك كنت أسعد ابان العزوبة منك بعـــد الزواج ! واذا ألمت بك كارثة أو عرضت لك مشـكلة فلا تحمل على الزواج والاسرة والابناء ، بل قل لنفسك ان الحياة لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة ، وان الحياة الزوجية قطعة مصغرة من الوجود البشرى ، فهى لا يمكن الا أن تكون مزيجـــا من الآمال والآلام ، من السعادة والشقاء ، من الرضا والسخط ! ولا تظن أن السعادة حالة مستقرة أو وضع ثابت ، بـــل هى فى صميمها نزوع وشروع وسعى مستمر ، وما أصـــدق البعض حينما قال : « ان سعادة الانسان لهى فى السعى وراء السعادة أكثر مما هى فى امتلاكها ! » ٠

ـ اعمل دائما على تجنب أسباب « السـأم » فى

www.ibtesama.com/vb

حياتك الزوجية ، فانه ليس أثقل على النفس من حياة يشيع فيها الملل والتكرار والرتابة • ان نزهة صغيرة ، أو مفاجأة بسيطة ، أو هدية غير منتظرة قد تدخل السرور على قلب زوجك بما لا يخطر لك على بال • فلا تدع الفرصة تفوتك دون أن تعمل على تجديد حبك وتقوية مظاهر اتحادك بزوجك وليكن شعارك دائما ان العاطفة الزوجية الصادقة لا يمكن أن تموت لانها تعرف كيف تخلق نفسها بنفسها !

ـ لا تتردد فى أن تعرب لزوجك ـ كلما سنحت الفرصة عن حبك لها واعجابك بها ، فان المرأة ترتاح الى عبارات الحب يزجيها اليها شريك حياتها ، وهى أحرص ما تكون على أن تتأكد من أنها لا زالت الفتاة الجميلة التى استطاعت يوما أن تكسب قلب زوجها ! فلا تكتف بأن تقول فى نفسك : « انها تعلم أننى أحبها » ، بل افصح لها عن حبك ، كما كنت تفعل فى بداية عهدك بمعرفتها ••• ان كلمة « أنا أحبك » قد تفعل أحيانا فعل السحر فى نفس المرأة ، خصوصا اذا اقترنت بدلائل الوفاء وأمارات الاخلاص ، فلماذا تضن على زوجك بهذه الكلمة الصغيرة التى لا تكلفك كثيرا ، والتى قد تحمل فى ذهن زوجك معانى تأكيد العهد وتجديد الحب ؟

www.ibtesama.com/vb

ـ لا تسارع الى اتهام زوجك بتحولها عنك أو كراهيتها لك أن هى أعرضت عنك جنسيا : فان الحافز الجنسى لدى المرأة مرتبط بالكثير من الشروط الفسيولوجية والنفسية ، فضلا عن أن المرأة فى حاجة الى الكثير من مظاهر العطف والرقة حتى تستجيب لك جنسيا • ـ لا شك أنك على حق حينما تأبى أن تفصل بين العنصر الجسمى والعنصر العاطفى فى الحب ، ولكن تذكر دائما أن زوجتك ليست مجرد أداة لاشباع حاجاتك الجنسية ، بل هى كائن حر له ايقاعه الذاتى وحاجاته العاطفية الخاصة •

ـ اذا حدث شجار بينك وبين زوجك أثناء النهار ، فلا تدع هذا الشجار يدوم الى ما بعد منتصف الليل ! ان الفراش الذى يجمع بينكما لابد من أن يكون هو الحد الفاصل الذى تقف عنده هموم النهار ومشاغله ومشاكله ومشاحناته ! فاذا ما استدارت نحوك زوجك بعد نهار عاصف ملىء بالشجار ، كان عليك أن تتناسى كل شىء ، لكى تطوقها بذراعيك ، وتجدد معها اتحادك الشخصى فى نشوة عميقة يمحى معها صراع النهار فلا تبقى الا وحدة الحب التى تطوى فى أثنائها كل هم ، وتغيب فى رحابها كل فرقة !

ـ احرص دائما على تجنب أسباب المشاحنة ، وتلافى

www.ibtesama.com/vb

مبررات الخلاف ، فانه ليس أقتل لصفاء الحيـــاة الزوجية من المداومة على الشجار ، والتفنن فى خلق أسباب الشقاق • وأعلم انه اذا امتدت ضروب الصراع واتسعت حتى أصبحت تشمل معظم مظاهر التعامـــل الزوجى ، فلا بد من أن تجىء اللحظة التى تصبح فيها الحياة الزوجية جحيما لا يطاق ! ولماذا تداوم عـــلى اجترار أسباب الشقاق وأنت تعلم أن الحياة الزوجية ليست صراعا من أجل السيطرة والتفوق ، بـــل هى تعاون مشترك ، وتكيف متبادل ، وصلة مزدوجة تقوم على الاخذ والعطاء ؟

ـ أعلم أن الغياب القصير قد يقوى الرابطـــة الزوجية ويجدد الحب بين الزوجين ، بينما قد يتسبب الغياب الطويل فى القضاء على صرح الحياة الزوجيـة أو زيادة أســـباب الفرقة بين الزوجـــين • فلا تـدع زوجتك بمفردها لمدة طويلة ، اللهم الا اذا اضطرتك ظروف قهرية لذلك ، وليكن شعارك دائما ان الحيـاة الزوجية هى شعور بالمعية ، وأن زوجتك ينبغى أن تكون الى جوارك أينما توجهت •

ـ لتقم حياتك الزوجية على فهم عميق لسيكولوجية المرأة ، لأنك اذا عرفت أن أنوثة المـرأة لا تكتمل الا بالامومة ، فانك لن تحرم زوجك حقهـــا الطبيعى

www.ibtesama.com/vb

فى أن تكون « أما » (١) • ولاشك أنك تذكر أن الزواج ليس مجرد اشـــباع جنسى ، أو توافق مزاجى ، أو اطمئنان عاطفى ، بل هــو أيضـا تعاون على تكوين أسرة جديدة ، وتضافر مشترك على تربية النسل والعمل على تنشئته • ولـكن لا تجعل من زوجك جهازا آليا تنحصر كل مهمته فى انجاب النسل وانتاج الاطفال ، بل حاول أن تنظم نسلك بما يتلاءم مع ظروفك المادية والاجتماعية ، وما يضمن صحة زوجك •

ـ اذا كنت قد ارتضيت لنفسك أن تتزوج امرأة تزاول عملا أو تحترف مهنة ، فلا تحقد على الـــدور الاجتماعى الذى تقوم به ، ولا تأخذ عليها اخلاصـها فى أداء واجبها • حقا انها لمهمة شاقة بالنســبة الى الرجل أن يكون زوجا لامرأة ناجحة ، ولكن التجربة قد دلتنا على أن نساء غير قليلات ممن يزاولن مختلف الاعمال قــد استطعن فى الوقت نفســه أن يكن زوجـــات مخلصات وأمهات ناجحات • وليست الخطورة فى أن تقترن بامرأة عاملة ، بل الخطورة فى أن تتزوج بامرأة « عصابية » (أى مصـــابة بمرض نفسى) ، لأن فى العصاب انعداما للتكيف العاطفى وخطرا جسيما على

---

(١) انظر فى كتابنا « سيكولوجية المرأة » ، دار مصر للطباعة ، يناير سنة ١٩٥٧ ، الفصل الخامس (المرأة فى دور الأمومة) •

www.ibtesama.com/vb

بامرأة « عصابية » قد عدمت كل ثقة فى نفسها ...

ـ اجتهدى ـ أيتها الزوجة ـ فى أن تقوى من عزيمة زوجك ، وأن ترد اليه ثقته فى نفسه ، وأن تشعريه فى كل حين بأنه جدير بالنجاح : فليس أفعل من تأثير المرأة على الرجل ، وليس أضمن لنجاح الرجل فى حياته العملية من شعوره بأن زوجه الى جانبه تسانده وتؤيده وتؤازره ، وانها على استعداد لأن توفر له كل أسباب الصفاء والهدوء فى حياته المنزلية . واعلمى دائما ان الرجل الناجح فى عمله هو فى معظم الاحيان رجل موفق فى زواجه ، سعيد فى بيته ، لأن النجاح وليد الثقة فى النفس ، وثقة الرجل فى نفسه هى فى الغالب انعكاس لثقة زوجه فيه .

ـ حاولى دائما أن تشعرى زوجك بأنه الرجل المثالى الذى تتجسد فيه كل آمالك وأحلامك ، ولا تعمدى دائما الى شغل باله بهموم البيت ومضايقات الحياة العائلية ، بل وفرى له أسباب العمل فى هدوء واطمئنان . واذا كان زوجك مستغرقا فى عمل جدى هام ، فلا تعكرى صفوه ، ولا تؤولى انعزاله عنك بأنه دليل على كراهيته لك ! تذكرى أن كل نفس قد تشعر بالحاجة الى العزلة فى لحظة من لحظات حياتها ، وأنه قد

www.ibtesama.com/vb

يكون من العبث أن تفرض نفسك على زوجك حينما يكون هو أحوج الى الوحدة منه الى أى شيء آخـــر ! واعلمى أنك ان تركتيه بمفرده الى حين ، فانه لن يلبث أن يعود اليك باهتمام أكبر وشوق أعظم ! ولا تنسى أنه اذا كانت المرأة هى « البيت » أو هى روح البيت ، فان « العمل » بالنسبة الى الرجل هو « المنزل » الـــذى يسكنه : لأن الرجل لا يحيا فى البيت ، بل يحيا حيث يعمل !

ـ أخيرا لتكن تربية الأولاد همكما الاكبر فى الحياة الزوجية : فان المرء يكتسب أسلوب حياته فى السنوات الأولى من طفولته ، والطفل الذى ينشـــأ على الغش والكذب والتضليل ، سواء فى لعبه أم فى عمله أم فى علاقته مع اخوته ، لن يلبث أن يصير زوجا خائنا ورجلا غادرا ومواطنا خداعا • فالاستعداد للزواج انما يبـدأ منذ الطفولة المبكرة ، لأن البيت السعيد هو الذى يخلق الأبناء السعداء والازواج الناجحين ، ولا شك أنه اذا شب الطفل وفيا مخلصا ، يؤدى عمله بأمانة ، ويتعامل مع الآخرين فى صراحة ، فانه لن يكون فى المســـتقبل الا رجلا مخلصا وزوجا وفيا •

www.ibtesama.com/vb

خاتمـــة

أما بعد ، فقد حاولنا فى هذه الخلاصة الوجيزة أن نستعرض بعض مشكلات الزواج والأسرة فى ضـــوء أحدث الاختبارات النفسية وأوثق الاحصـــــائيات الاجتماعية • وقد تبين لنا فى تضاعيف هذا الكتيب أن السعادة الزوجية تتوقف الى حد كبير على سعادة الآباء فى حياتهم الزوجية ، وسعادة الأبناء فى مرحلة الطفولة، وانعدام كل صراع مع الأم • ومعنى هذا أن الحيـــاة الغرامية للشخص البالغ مشروطة بروابط الحب فى حياة الطفولة • وقد ثبت بالتجربة أن الأبناء المحرومين الأشقياء هم الذين يصبحون فيما بعد آباء طالحين وأمهات فاسدات • ومن هنا فان عملية التكيف الزوجى تستلزم شروطا عديدة يرجع بعضها الى عوامل بعيدة تتصـــل بحياة الزوجين فى السنوات الخمس الأولى من طفولتهم • ولهذا يقرر البعض أن مدى قدرة الشخص على التكيف فى الزواج انما تتحدد منذ طفولته المبكرة • ولا شك أن هذه الحقيقة تزيد من خطورة التبعة التى تقع على عاتق الوالدين ، ما دام النجاح أو الفشل فى الحيـــاة الزوجية بأسرها رهنا بالتربية التى يتلقاها الأطفال منذ حداثتهم فى كنف البيئة العائلية • ولا نرانا فى حاجة

www.ibtesama.com/vb

الى أن نعيد ما سبق لنا ذكره مرارا من أن معيار النجاح في الحياة الزوجية هو نضج الشخصية وادراكها لما في الرابطة الزوجية من ثبات ودوام • فليس الزواج مجرد صلة عاطفية أو رابطة جنسية ، وانما هو في صميمه شعور بالمعية ، وتعاون مشترك يقوم على الأخذ والعطاء، واخلاص متبادل لا يكتفي فيه كل طرف بالوفاء للآخر وانما يشعر فيه الطرفان بضرب من « الولاء » نحو الزواج نفسه باعتباره نظاما مقدسا • ولكن على الرغم من أن الحب ليس هو الدعامة الوحيدة التي يقوم عليها الزواج ، فان من المؤكد أن الحب يقوم بدور هام في كل مرحلة من مراحل الحياة الزوجية • وكثيرا ما يعمل الحب عمله في اختيار المرء لشريكة حياته ، فيدرك المرء في حساسية غير معهودة أنه لم يخلق الا لهذا الشخص المعين الذي كشف له الحب عن قيمته الخاصة • ثم تجيء الرابطة الزوجية فتخلع على هذه العاطفة طابع الثبات والاستمرار ، وعندئذ يشعر كل من الطرفين بأنه قد دخل في معراج الحياة المشتركة التي لا انفصام لها حتى الموت !

وهنا تثار مشكلة العلاقة بين الحب والزواج : فان البعض قد رأى في انعدام الحب قبل الزواج نذيرا بخطر جسيم يتهدده في كل لحظة ، بينما يؤكد البعض الآخر

www.ibtesama.com/vb

أنه ليس أفشل من تلك الزيجات التى تقوم على الهوى العنيف والعاطفة الجامحة • ونحن نعرف كيف يجرى الزواج (حتى يومنا هذا) فى بعض المجتمعات الشرقية حيث تشترك الأسرة بأكملها فى اختيار زوج الابنة أو زوجة الابن ، بدعوى أن الوالدين أكثر مراسا وأعمق تجربة من الأبناء ، فلا يقام وزن لعاطفة البنت أو الابن ، بل يعتد بقيمة الأسرة وشرفها ومركزها الاجتماعى وحالتها المادية وما الى ذلك • وفى هذه الأحوال ، لا يكون المفروض أن يبدأ الحب قبل الزواج، بل أن يجىء بعده • ولكن الحب قد يجىء أو لا يجىء ، أو هو فى بعض الأحيان قد يترك مكانه للكراهية والبغضاء ! ومع ذلك ، فقد عاش كثير من الرجال والنساء سعداء فى ظل هذا النظام من أنظمة الزواج، لأنهم كانوا يشعرون بالسعادة فى الخضوع للمجتمع واحترام تقاليده الزوجية والوفاء لنظام الزواج نفسه • والواقع أن الزواج فى مثل هذه المجتمعات قد كان جزءا لا يتجزأ من الواجب الدينى فلم تكن الحياة الزوجية فى نظر الأفراد مجرد مسألة شخصية ، بل كانت مهمة أخلاقية وتبعة اجتماعية ، ولا شك أن الفرد حينما يشعر بأنه يستند الى ارادة عليا ، وأنه يحقق واجبات تقليدية رسخت فى حياة المجتمع منذ آلاف السنين ، وأنه يقدم بزواجه على مهمة اجتماعية ذات طابع دينى ، فانه عندئذ

www.ibtesama.com/vb

قد يشعر بسعادة قصوى فى الولاء للزواج نفسه · وربما كان مجتمعنا الحاضر أحوج ما يكون الى مثل هذا الشعور ، فقد أصبح الكثيرون يستخفون بقداسة الزواج ، ولا يرون فيه الا « عقدا مدنيا » يمكن فضه لأتفه الأسباب ، كما وقع فى ظن البعض أن ليس ثمة فارق بين الحب والزواج !

وقد فطنت معظم البلاد الغربية الى ضرورة العمل على دعم أواصر الحياة العائلية ، وتقوية دعائم المجتمع الأسرى ، فظهرت كثير من المؤسسات العامة والخاصة التى أخذت على عاتقها اعداد الشباب للحياة الزوجية وتقديم العون والنصيحة للراغبين فى حل مشكلاتهم العائلية · وهكذا زاد الاهتمام فى الجامعات والمعاهد العليا بمشكلات الزواج والحياة العائلية ، فأصبحت بعض الجامعات الامريكية (مثل جامعة شمال كارولينا) لا تقتصر على امداد طلبتها بمعلومات دقيقة عن الأسس الاجتماعية والسيكولوجية للنظام العائلى ، بل تعطى لهم أيضا دروسا خاصة فى الزواج يمكن أن يستفيدوا منها بطريقة عملية شخصية · ومن أهم ما تتناوله هذه الدروس مسائل الحب والخطبة والزواج والتكيف وادارة شئون الأسرة المالية ومشكلات تنظيم النسل والحمل والطلاق وما الى ذلك ··· ولم تكتف بعض

www.ibtesama.com/vb

المؤسسات الأمريكية بمثل هذه الدروس النظرية في الخطبة والزواج ، بل أنشأت أيضا أقساما خاصة بالاستشارة الشخصية في هذه المسائل • ولكن بعض الصعوبات المادية قد حالت دون تعميم هذا النظام في كثير من المؤسسات الثقافية فلم ينتشر نظام مكاتب الاستشارة ، بل اقتصرت معظم المعاهد على اعطاء الدروس النظرية ، وحل مشكلات الشباب العائلية ضمن غيرها من المشكلات الاجتماعية الأخرى في العيادات النفسية ومكاتب الخدمة الاجتماعية الملحقة عادة بتلك المعاهد • ومهما يكن من شيء ، فقد فطنت الدول الغربية الى أهمية تهيئة الشبان والفتيان للحياة الزوجية عن طريق هذه المحاضرات العامة التي تعين الراغبين في الزواج على فهم المبادىء العامة للسلوك البشري والتكيف الاجتماعي ، والتي تسمح لكل فرد منهم أن يفهم حالته الخاصة في ضوء ظروفه واستعداداته الشخصية مع تطبيق تلك المبادىء على حالته الفردية • ولكن مثل هذه المحاضرات العامة قد لا تمتد الى صميم الحياة الزوجية ، على نحو ما تمس كل فرد على حدة ، فان لكل مشكلاته الخاصة التي قد لا تجدى في حلها سوى الاستشارة الشخصية ، ولهذا فقد دعت الضرورة الى انشاء عيادات للارشاد العائلي تقوم بمهمة التوجيه العملي

www.ibtesama.com/vb

الى جانب تلك الدروس العامة فى الزواج والتربيـــة العائلية ٠

وقد نشأت أول عيادة للارشاد العائلى فى ڤينا سنة ١٩٢٢ ، وكانت هذه العيادة بمثابة مكتب للزواج ، ثم تأسست عيادة مماثلة فى الولايات المتحدة عام ١٩٣٠ ، ولم يلبث هذا النظام أن انتشر فى كثير من بلاد أوروبا وأمريكا ، حتى لقد أصبحت هناك اليوم مؤسسات عديدة عامة وخاصة تقوم بارشاد الراغبين فى الزواج ، وحل مشكلات المتزوجين الذين تعرضت حياتهم الزوجية لبعض المتاعب أو الاضطرابات ٠ والمشرفون على هذه العيادات فى العادة هم من المشتغلين بالخدمة الاجتماعية ، أو المعالج النفسى ، أو الارشاد الدينى ٠ وقد لوحظ فى مكتب الارشاد العائلى بفيلادلفيا أن ٧٥٪ من الأشخاص الذين تقدموا للعيادة بقصد الارشاد كانوا من النساء ، وأن معظمهن لم يقدم للاستشارة الا قبل الزواج بأســـبوع واحد ، وأن الأغلبية العظمى منهن لم تطلب الاستشـارة سوى مرة واحدة ٠ ولكن بينما يقتصر عمل هذه المكاتب على ارشاد الراغبين فى الزواج ، نجد أن ثمة عيادات للمشكلات العائلية يقوم المشرفون عليها بدراسة حالات الصراع الزوجى ومشكلات الأبناء وغير ذلك من المسائل المعقدة التى قد تحتاج الى الالمام بماضى الزوجين والبيئة

www.ibtesama.com/vb

التى نشأ فيها كل منهما وما الى ذلك ... ولا شك أن حل مثل هذه المشكلات العائلية المعقدة يقتضى خبرة واسعة فى ميدان العلاج النفسى ، ودراية عميقة بعلم السلوك البشرى .

والواقع أن عمل مثل هذه العيادات العائلية قد لا يسمح لها بأن تحقق « التكيف » لأكثر من عدد محدود أو نسبة ضئيلة من الأشخاص الذين يتقدمون لها ، وذلك لأن حل المشكلات العائلية يستلزم الالمام بكثير من العوامل النفسية والاجتماعية المرتبطة بتاريخ الشخصية . ومن هنا فان دراسة أية حالة فردية تقتضى فى العادة أن يجد الموجه الاجتماعى تحت يده تقريرا طبيا مفصلا ، وأن يقوم فى الوقت نفسه بعمل اختبارات سيكولوجية أو فحص نفسى (اذا لزم الأمر) ، فضلا عن ضرورة الالمام بالتاريخ الاجتماعى للشخصين الراغبين فى الزواج أو المتصارعين فى حياتهما الزوجية . وهذا العامل الأخير هو بلا شك أهم العوامل وأعمقها تأثيرا فى الحياة الزوجية ، ولذلك فان المشتغلين بالعلاج فى هذه العيادات العائلية يولونه فى العادة عناية فائقة . ومن كل هذه الاختبارات والمقابلات الشخصية قد ينجح المعالج فى الوصول الى المعلومات اللازمة لتشخيص أسباب التوتر العائلى ، فيكون فى وسعه بالتالى أن يفهم

www.ibtesama.com/vb

كل حالة من الحالات على حدة ، في ضوء ما اقترن بها من مظاهر توتر ، وما صحبها من أساليب خاصة في التعامل، لكي ينتهي أخيرا الى تحديد العلاج وفقا لما تقضي بـــه الظروف الاجتماعية التي يوجد فيهـــا الشخصـــان المتنازعان ٠

وقد أصبح من المألوف اليوم في كثير من البـــلاد الأجنبية أن يتوجه الراغـــون في الزواج الى بعض مؤسسات اجتماعية (عامة أو خاصة) يتلقون فيها بعض النصائح العملية قبل الزواج ، أو يلتمسون لديهـــا تقارير مفصلة عما يحتمل أن يصيب زواجهم من نجاح أو فشل ٠ وان البعض ليشك في مدى قدرة مثل هـذه المؤسسات على التنبؤ مقدما بنجاح هذا الزواج أو ذاك ، نظرا لأن درجة معرفتنا بمبـــادىء الســـلوك البشرى وأساليب التكيف الاجتماعى لا زالت من الضعف بحيث قد لا تسمح لنا بتحديد مستقبل الاسرة تحديدا دقيقا مؤكدا ٠ ولكن مهما يكن من شيء ، فان في استطاعـة مكاتب الارشاد العائلى أن تعين الراغبين في الزواج على الاستعداد للمهمة الاجتماعية التي تنتظرهم ، كمـــا أن في وسعها أيضا أن تعينهم على فهم بعض ما يكتنف الحياة الزوجية من مصاعب ٠ واذا كان من الصـــعب في كثير من الأحيان أن تتكفل هذه المكاتب بحـــل

www.ibtesama.com/vb

مشاكل المتزوجين على الوجه الأكمل خصوصا حينما تكون أسباب الخلاف قد استشرت فى كيان الاسرة ، فان فى استطاعتها على الأقل أن تبين لهم السبيل الى تحقيق بعض مظاهر التكيف فى الحالات التى لا يكون الصراع فيها قد امتد الى صميم الحياة الزوجية • وحينما تزيد معرفتنا بالشخصية الانسانية ، ومبادىء السلوك البشرى ، ودعائم التكيف الاجتماعى ، وأساليب التوافق الزوجى ، فقد يكون فى وسعنا عندئذ أن نقدم للمتنازعين من الأزواج والزوجات مساعدات فعالة واقتراحات عملية تضمن حل مشكلاتهم الزوجية بطريقة حتمية علمية أكيدة • وأما فى الوقت الحاضر ، فان البعض يرى الاقتصار على تقديم النصائح قبل الزواج ، عملا بمبدأ « الوقاية خير من العلاج » •

* * *

وقد فطن دستورنا الشعبى الجديد الى أهمية الأسرة فى حياة المجتمع المصرى فجاء فى المادة الخامسة من الباب الثانى أن « الأسرة أساس المجتمع ، قوامها الدين والاخلاق والوطنية » ، كما ورد فى المادة ١٨ من الباب نفسه : « تكفل الدولة ، وفقا للقانون ، دعم الأسرة وحماية الأمومة والطفولة » • وهذه النصوص (وغيرها كثير) تبين لنا كيف حرص المشرع المصرى

www.ibtesama.com/vb

على تقوية دعائم الأسرة ، حتى يضمن للمجتمع المصرى مواطنين صالحين نشأوا فى أحضان أسر ديموقراطية صحيحة • وقد أصبح لزاما على الصحافة والمؤسسات الاجتماعية وسائر المشرفين على التربية والتعليم فى هذا البلد أن يستجيبوا لنداء دستورنا القويم فيعملوا فى قوة وعزم على أن يرفعوا من شأن الأسرة ، وأن يكفلوا لها المستوى الصحى والنفسى والاجتماعى الذى يليق بأسرة ديموقراطية حديثة • وأما المهمة التى تقع على عاتق رجال الأقلام فى هذا البلد فهى مهمة الدفاع عن كيان الأسرة ، والعمل على النهوض بمستوى المرأة ، والدعوة الى انشاء مكاتب الزواج وعيادات الارشاد العائلى فى المدن الكبرى (على الأقل) • وحينما ينتشر بيننا نظام العيادات النفسية والاجتماعية ، فسيكون فى وسعنا عندئذ أن نعلم الأزواج والزوجات أنه حينما يدب الخلاف بينهم ، فان المصلحة تقضى عليهم بأن يلتجئوا الى عيادات الارشاد العائلى قبل أن يسارعوا الى المحاكم سعيا وراء الطلاق •ونحن مقبلون فى مصر على عهد جديد بدأ الاهتمام فيه بالنواحى السيكولوجية والاجتماعية يظهر واضحا ، فلن ينقضى وقت قصير حتى يكون عندنا من الأكفاء والمتخصصين من يستطيع النهوض بمهمة التوجيه العائلى والعمل على تقوية دعائم المجتمع الأسرى •

www.ibtesama.com/vb

المراجـــع

اولا : المراجع العربية :

- زكريا ابراهيم : « سيكولوجية المرأة » ، القاهرة ، دار مصر للطباعة ، سنة ١٩٥٧ ، ص ١٧١ .
- محمد خليفة بركات : « مدخل علـــم النفس » ، القاهرة ، دار مصر للطباعة ، سنة ١٩٥٦ ، ص ٥١ ـ ٥٩ .
- محمود على قراعة : « الحياة الزوجية » ، القاهرة ، دار مصر للطباعة ، سنة ١٩٥٤ .
- مصطفى فهمى : « الدوافع الجنسية » ، القاهـرة ، دار مصر للطباعة ، سنة ١٩٥٥ ، الطبعة الثالثة .
- يوسف مراد : « سيكولوجية الجنس » ، القاهـرة ، دار المعارف ، مجموعة اقرأ ، سنة ١٩٥٤ .
- يوسف مراد : « شفاء النفس » ، القاهـــرة ، دار المعارف ، مجموعة اقرأ ، سنة ١٩٥٣ ، الطبعـــة الثانية .
- يوسف مراد : « الكتاب السنوى فى علم النفس » ، دار المعارف ، سنة ١٩٥٤ .
- عبد المنعم المليجى : « النمو النفسى » ، الطبعـــة الثالثة ، دار مصر للطباعة ، سنة ١٩٥٧ .

www.ibtesama.com/vb

ثانيا : المراجع الأجنبية :

أ ـ المراجع الخاصة

— Anchen (R. N.) editor : "The family : Its Function and Destiny". Harper & Brothers, New-York, 1941.

— Baber (R. E.) "Marriage and the Family", McGraw-Hill Company, Inc., New-York, 1953.

— Bowman (H. A.) : "Marriage for Moderns", McGraw-Hill Company, Inc., New-York, 1948.

— Burgess (E. W.) & Locke (H. J.) : "The family", American Book Corp., New-York, 1945.

— Christensen (H. T.) : "Marriage Analysis", The Ronald Press. Company, New-York, 1950.

— Elliot (M. C.) : "The Sociology of the Family", Ginn & Company, Boston, 1945.

— Folsom (J. K.) : "The Family and Democratic Society", John Wiley & Sons, New-York, 1943.

— Foster (R. G.) : "Marriage and Family Relationships" The Macmillan Company, New-York, 1950.

— Goldstein (S. E.): "Marriage and Family Counseling" Mc Graw-Hill Book Company, Inc., New-York, 1945.

— Harper (F. V.) : "Problems of the Family", The Bobbs-Merrill Company, Inc., 1952.

— Hollis (Florence) : "Women in Marital Conflict", Family Service Association of America, New-York, 1945

— Komarovsky (Mirra): "Women in the Modern World" Little, Brown and Company, Boston, 1953.

www.ibtesama.com/vb

Landis (J. T.) & Landis (Mary G.) : "Building a Successful Marriage", Prentice-Hall Book Company, Inc., New-York, 1945.

Locke (H.) : "Predicting Adjustment in Marriage". Henry Holt and Company. New-York, 1951.

Merrill (F. E.) "Courtship and Marriage", William Sloane Associates, New-York, 1949.

Mowrer (H. R.) : "Personality Adjustment and Domestic Discord", American Book Company, New-York 1950.

Waller (W. W.) : "The Family, A Dynamic Interpretation", The Dryden Press, Revised by R. Hill, New-York, 1951.

Winch (R. F.) : "The Modern Family", Henry Holt & Company, New-York, 1952.

ب ـ المراجع العامة

Adler (A.) : "What Life should Mean to you", Boston Little, Brown & Company, 1931.

Adler (A.) : "Understanding Human Nature", published by Messors George Allen & Unwin, London.

Bogardus (E. S.) : "Sociology", fourth edition, The Macmillan Company, New-York, 1954.

Bowlby (J.) : "Child Care and the Growth of Love", London, A Pelican Book, 1953, reprinted 1955.

Schwarz (O.) : "The Psychology of Sex", London. A Pelican Book, Penguin, 1949, reprinted 1953.

www.ibtesama.com/vb

— Way (Lewis) : "Alfred Adler ; An Introduction to his Psychology", London, Penguin, Pelican Books, 1956.
— Young (K.) : "Personality and Problems of Adjustment", second edition, London, Routledge & Kegan Paul, 1952.
— Young (K.) : "A Handbook of Social Psychology", fourth impression, London, Routledge & Kegan Paul, 1944.

www.ibtesama.com/vb

رقم الايداع ٧٨/٣٥٣٣

www.ibtesama.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر مايو 2015 **

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com/vb

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb